# اللطائف
## والطب الروحاني

لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي

تحقيق

عبد القادر أحمد عطا

دار الطباعة المحمدية
بالأزهر - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

# المقدمة

## مع ابن الجوزى فى لطائفه

ابن الجوزى حافظ من حفاظ السنة ، له ثقافة واسعة ، شملت التاريخ والأدب والتصوف المعتدل ، له باع طويل فى الوعظ والتأثير والخبرة بمداخل النفوس ، تبدو واضحة تماما فى كتاب اللطائف . فهذا الكتاب على صغر حجمه عجيب فى بابه ، إذ جمع فنونا شتى من المعرفة ، من علم النفس البشرية ودسائسها ، إلى محاولة لفهم الغيبيات ، إلى لون مبسط عميق من الفلسفة ، إلى ضروب شتى من عجائب الخلق الداعية إلى الإيمان ، إلى نظر متدبر فى القرآن ، إلى فرائد من تاريخ الصحابة والتابعين وتابعيهم ، إلى باقات رائعة من الأدب والشعر العربى ، إلى سيل من بديع الحلية فى البلاغة العربية ، مما يجعله بحق درة فريدة بين تراث العرب المسلمين .

### أثر الكتاب فى أعيان العلماء :

كان هذا الكتاب على مايبدو لنا على درجة عظيمة من الشهرة فى القرن السابع الهجرى ، إذ أن نسخة خطية منه محفوظة بالمكتبة الأزهرية ، كانت قد نسخت فى القرن السابع الهجرى لأحد الحكام ، وقد عبثت الأيدى التى تناولت المخطوطة باسم هذا الحاكم الذى طلب استنساخها لنفسه ، مما يدل على شهرته آنذاك .

على أن الكتاب قد أوحى إلى الوزير لسان الدين بن الخطيب بكتابه « روضة التعريف بالحب الشريف » ، لأنه ذيل كل فصل من كتابه بفقرة من هذا الكتاب عقب قوله : قال أبو الفرج ، ولم يفصح عن اسمه المميز له عن آباء الفرج المعروفين بين العلماء .

هذا فضلا عن أن ابن الخطيب تأثر فى عرضه لكتابه روضة التعريف بابن الجوزى تأثرا واضحا ، فابن الجوزى يعرض فى لطائفه لعجائب الخلق فى العنكبوت وغيره ، وابن الخطيب يعرض بنفس المنهج لعجائب الأفلاك وألحان الموسيقى والعنكبوت ، ثم يقلد أسلوب ابن الجوزى فى العرض . فيختم كل فقرة من بحوثه بما يناسبها من الشعر العربى الرائق .

ويمكننا بحق أن نقرر أن اللطائف هى النبع الذى انبعثت عنه الموسوعة الهائلة « روضة التعريف » ، وأن ابن الجوزى كان يسيطر بأسلوبه وعلمه وجمال عرضه على أدباء المغرب العربى فى الأندلس ، وكان يعرف هنالك باسم أبى الفرج البغدادى ، ولم يكن « ابن الجوزى » علما عليه فى الأندلس يبلغ شهرة أبى الفرج البغدادى ، وقد أشار إلى شهرته تلك لسان الدين فى أوائل روضة التعريف مما يجعلنا نرجح أن نسخة المكتبة الأزهرية كانت قد نسخت لأمير أندلسى ، لأنها اتفقت فى اسم المؤلف مع الاسم الذى أورده ابن الخطيب .

وشيخ من فحول الشيوخ المسلمين تأثر بابن الجوزى فى كتابه هذا هو الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى شيخ الدنيا فى التحقيق والنظر العميق ، والثقافة الواسعة الشاملة الواعية ، وذلك يبدو لنا من وجوه شتى أهمها :

١ — تتلمذ الشيخ الأكبر محيى الدين فى أول أمره وقبل أن يعرف بالشيخ الأكبر ، وأيام صباه على الشيخ أبى الفرج بن الجوزى ، وأخذ عنه

الكثير من الحديث ، وارتاد حلقاته ، ونهل من معينه ماشاء الله له أن ينهل ، وأجازه ابن الجوزى بمروياته .

٢ — آثر ابن عربى منهج ابن الجوزى فى مزج علوم الدين بالأدب ، فكما كتب ابن الجوزى فى الأدب كتب ابن العربى مسامراته فى الأدب ، وإن كان شيخه ابن الجوزى قد طرق موضوعات أدبية . بحتة كما فعل فى كتابه عن شهيرات النساء .

٣ — الإشارات القرآنيـــة التى وردت فى اللطائف ، والتى اكتفى ابن الجوزى فيها بالإشارة إلى جزء من الآية كانت بلاشك بذرة طيبة الثمرات فى كتب الشيخ الأكبر التى أوسعت هذا الباب ، حتى أغلقته على من بعده تماما .

٤ — الإشارات والرموز الواردة فى اللطائف ، والتى تعتبر رموزا صوفية عميقة بسيطة العرض ، كانت أصلا من أصول الرموز البسيطة والمستغلقة فى كتب الشيخ الأكبر ابن عربى .

٥ — ولئن كان الشيخ الأكبر قد تتلمذ فى بداية أمره على مثل الشيخ عبد الحق الإشبيلى الخراط ، فإننا لانجده متأثرا مثلا بكتاب العاقبة وكتاب التهجد اللذان أجازه بهما شيخه عبد الحق ، كما تأثر بأبى الفرج ابن الجوزى فى كتاب اللطائف بالذات من دون مؤلفاته جميعا ، كما تأثر بالشيخ من دون شيوخه جميعا ، لأن أبا الفرج عرف بقدرته البارعة على استنزاف الدموع من عيون سامعيه ، وكان الفتى محيى الدين من ذوى المواهب الروحية الرقيقة التى تستجيب لعوامل التأثير الغيبية بصورة لم نعهدها فى رجال المعرفة الإسلامية ولا غير الإسلامية على هذه الدرجة من الحساسية والقوة ، ومن هنا كان تأثره بكتاب اللطائف الذى نقدمه الآن .

ونعتقد أن الشيخ عزالدين بن عبدالسلام هو الآخر قد تأثر بابن الجوزى

فى كتابه الصغير الذى وضعه مترجما عن المعرفة الإلهيـــة على ألسنة الطيور والأزهار .

كما نعتقد كذلك أن أبا الفرج قد تأثر بمن سبقوه ممن درسوا النفس البشرية وألاعيبها ودسائسها ، وفقهوا أسرار خداعها ، وعلموا وسائل تقويمها وملاطفتها حتى تنحل عزيمتها عما أمسكت به من متاع الحياة ، ولذة الشهوات ، وهو ما نجده واضحا تماما فى كتاب اللطائف .

## كتاب اللطائف :

كان ابن الجوزى واعظا ، وكانت شخصيته قبل كل شىء على قدر عظيم من القوة ، جعلت الرواة يتناقلون أنه كان يثير الدمع من العيون إذا جلس للناس دون أن ينطق بكلمة واحدة ، وهى سمة لا تتهيأ إلا للصالحين الأتقياء المحزونين لآخرتهم ، والذين يرون العاقبة التى تجعل الولدان شيبا رأى العين ، فتنعكس الأحزان على ظواهرهم من قلوبهم ، بحيث تنساب فى يسر إلى قلوب الناظرين لغة هى أبلغ من كل مقال ، فتثير كامن الدمع ، وتخلع جوامد القلوب .

ولقد أشار ابن الجوزى فى لطائفه إلى أن الناس يتأثرون فى مجلسه ، وينخلعون من طريقهم المعوج إلى الجادة التى ينشدها لهم ، ولكنهم لا يلبثون أن يتحولوا إلى أهوائهم وشهواتهم بعد زمن يسير .

وقد أشار فى مقدمة كتابه القصيرة إلى أنه آثر منهج الإشارة التى يعمل اكتشاف هدفها فى القلب قبل السمع ، فالتعبير بالحقيقة يطرق السمع أولا ، وقد يجاوز السمع إلى الفراغ المطلق بحيث لا يمس القلب من قريب ولا من بعيد ، أما التعبير البلاغى القائم على التوريات والجناسات

والاستعارات ، وجميع وسائل الخيال الأدبى ، فإن لذة الاستكشاف فيها حقا تتجه بالمعنى نحو القلب والعقل مباشرة ، ثم لايكون السمع إلامصدرا من مصادر الاستقبال المتأخرة لايأبه له البليغ كما يأبه للمدارك الوجدانية المقصودة بالخطاب .

ومن هنا كان ابن الجوزى جيد الإدراك لاستخدام أسرار العربية فى التأثير على الناس وفى أداء رسالته كاملة لانقص فيها .

وكان ابن الجوزى يدرك أخلاق عصره إدراكا واعيا ، فاستطاع أن يبرز من مباذل أهل العصر ألوانا ردد الكلام فيها كالتهافت على الدنيا ، أو المبادرة إلى الشهوات ، والاستئسار للنفس ونزواتها لاسيما شهوات النساء التى أفرد لها بابا ، وردد الحديث عنها فى أبواب أخرى ، والبراعة فى أحاديث الدنيا ، والعى عن حديث الآخرة والنفور منه ، والغفلة عن حب الله لعباده ، والانحياز لعدو الله وعدو الإنسان ، إلى غير ذلك من أخلاق البشرية بوجه عام ، وأخلاق العصر بوجه خاص .

ولم يغفل ابن الجوزى أن يضع الإنسان تحت المجهر ، ليتفحص تركيبه من خليط من النور والظلمة ، ويكشف عن البرزخ الفاصل بينهما ، ويرفع من قدر الإنسان على الملائكة بفضيلة الجهاد التى تضعه فى مقام الرجولة والبطولة .

كما لم يفعل أن يضع يد الناس على مشكلة أبيهم آدم ، فقد سرد قصة الجنة وأسباب طرده منها ، وأحزانه المتوالية ، وتلقيه الكلمات ثم التوبة عليه ، ثم كشف عن الحكمة الإلهية من إهباطه إلى الأرض . وفى الحنين الآدمى إلى أصله وجدان يغنى عن الجنات والشهوات .

كما نجده فى كتابه هذا يتردد بالإنسان بين الخوف والرجاء ولكنه يغلب جانب الرجاء فى فقرات على لسان الحال الإلهى الموجه نحو العباد ، فالعباد

من البشر أقدارهم عظيمة عند الله ، ولاحاجة بالله إلى شيء من خلقه ، والله يفتح باب رحمته لكل سائل ، ولكن الطبع المظلم هو الذى يمنع من وصول الرحمة إلى البشر ، فإذا كان الإنسان فى أصله جوهراً شريفا استحق سجود الملائكة ، ثم عرض له عارض انحرف به إلى الرذيلة ، فإن الله يغفر له كل ماوقع فى الوسط إذا أصلح الخاتمة ، فعاد الأول على الآخر .

ومع كل ذلك فهو يؤصل وعى التوبة الحقة ، ويقرر أنها ليست مجرد ترديد لأقوال باللسان ، بل هى ندم محرق ، ونوح متواصل ، وسهر دائم ، ثم يعرض علينا نماذج متعددة من خوف الأنبياء والأولياء فى مختلف العصور .

وهو يندد بالصوفية المدلسين ، ويقرر أن التصوف أصبح بلا مفهوم فى عصره حتى انعكس معناه الأصيل من القلب فصار على ظاهر الجسد ، والقلب منه خواء . فالخيام هى الخيام ولكن السكان ليسوا هنالك .

ونجد ابن الجوزى يردد وصفا للترددين فى عزائمهم ، حتى سمى كل من تردد فى إمضاء عزمة « مخنث العزم » وهو اختيار طريف يمكن أن يضم إلى أن الإنسان يذوب عمره كالثلج ، والمتردد أبرد من هذا الثلج ، فلا يستجيب لعوامل الطبيعة كما استجاب له الجماد فأصبح مائعا .

وحديث ابن الجوزى عن عجيب صنع الله فى الخلق ينتزع الإقرار بالإيمان انتزاعا من أعتى القلوب وأصلبها وأجلدها صدودا عن الحق ، ولاشك فى أن اطلاعه الواسع كان أكبر معين له على ذلك .

ولقد ركز ابن الجوزى على موسى وداود ويعقوب ويوسف وزليخا ولا سيما يعقوب الذى رمز إليه بكنعان الأمل ، وزليخا الهوى ، ويوسف العصمة .

ولقد اتخذ من قصة يوسف ميدانا استنبط منه قواعد السلوك إلى الله ، وأفاعيل النفس الأمارة بالناس ، ونتائج الاستقامة على الطريق ، ونتائج الصبر

على البلية وألاعيب الخيانة والحقـــد بين الإخوة إلى غير ذلك من الإشارات التى دقت وسهل فهمها ، ولـكـنها بلاشك من السهل الممتنع الذى لايمـكن تقليده إلا بجهد واستقامة نفس ، ونصاعة سلوك .

فابن الجوزى أديب رائق اللفظ واسع الثروة اللغوية خبير بمواقع الـكلام ، قادر على إصابة الغرض فى يسر وسهولة ، لأنه يفقه مايقول ، ويعلم من يخاطب .

وعلى أى حال فالـكتاب درة للواعظ وطالب الأدب ، وطالب السلوك وطالب العلم .

أسأل الله به عميم النفع ، وخلاص النية لوجهه ، إنه سميع الدعاء ؟

عبد القادر أحمد عطا

بسم الله الرحمن الرحيم

و به التوفيق

الحمد لله على مايوليه ، حمدا يرتضيه ، وصلى الله على من اقترنت جميع المعانى فيه ، وقرن اسمه بالحق عند الذكر ويكفيه ، وعلى آله وأصحابه وتابعيه .

هذا كتاب رقت عباراته ، ودقت إشاراته ، انتشرته عند الإملاء نثرا من فنون ، فهو نصيب أكف لاتلتقط الدون ، طردا على ثوب الوعظ ، وفض خاتم اللفظ يعمل فى القلب قبل السمع ، وإلى الله تعالى الرغبة فى النفع .

## الفصل الأول

فى قوله تعالى : « هو الأول والآخر والظاهر والباطن » .

لاتصفه صفة، لايصبغه الأول بحكم له مبتدأ ، ولا بالآخر صار له منتهى، ولا من الظاهر فهم له شبح ، ولا من الباطن تعطل له وصف ، خرست فى حضرة القدس صولة اللسان ، وكفت لهيبة الحق كف الكيف ، وعشيت لأنوار العز عين الفكر .

فأقدام الطبيب واقفة على حمى التسليم ، جل عن أشباه وأمثال ، وتقدس عن أن تضرب له الأمثال ، وإنما تقع الأشباه والأشكال فى حق من له أشباه وأشكال .

المشبه متلوث بقرب التجسيم ، والمعطل نجس بدم الجحود ، ونصيب المحقق من بين فرث ودم لبن خالص . هو المتنزه لالمّ لفعله ، ولاملء لكونه ، ولا فهم لذاته ، ولا كيف لوصفه ، ليس فى صفته ، ولا مما يدخل فى أحديته .

من طالع مرآة صمديته دلته على التنزيه ، وعلم أنه لا ينطبع فيها شبح الشريك ولا خيال التشبيه « تفكروا فى خلق الله ، ولا تتفكروا فى الله فتهلكوا » .

إذا استقبل الرمد الريح فقد تعرض لزيادة الرمد ، جاء البعوض إلى سليمان عليه السلام يشكو من الريح ، فاستحضر سليمان الريح ، فذهب البعوض ، فقال سليمان : إلى أين ؟ فقال : لو كان لى قوة على الثبوت معها ماشكوت .

# الفصل الثانى

## فى ذكر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم

تخبط القوم فى دعوى الشرك ، ففرّ فى بادية الهرب ، فتحرى غار حراء للفراغ فراغ إليه ، فجاء مزاحم اقرأ ياراهب الصمت ، تكلم لسان العجز البشرى « لست بقارىء » ، أنا بالأمس فى حجر حليمة ، ودخلت بموت أبى فى كفالة أبى طالب ، فحُم لما حُم ، فزمزم بلفظ زملونى ، فعاد لطف اللطف فبعث الراقد « يا أيها المزمل ، قم » . فما ركن .

يامحمولا عليه ثقل قم ، يامن خلع عليه خلعة « قم فأنذر » ، ومن تحركت لتعظيمه السواكن ، فحن إليه الجذع ، وكلمه الذئب ، وسبح فى كفه الحصا ، وتزلزل له الجبل(١) .

كل كنى عن شوقه بلسانه

عجب القوم من علو منزلته ، وقالوا بلسان الحسد : « لولا نزل هذا القرآن »(٢) والقدر يقول : ماهذا التعجب من نخلة بسقت والأصل نواة ، « ألم نخلقكم من ماء مهين » .

---

(١) وقف النبى صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر وعمر وعثمان على جبل أحد ، فتزلزل فقال صلى الله عليه وسلم : « اثبت أحد نبى وصديق وشهيدان » .

(٢) إشارة إلى قول الكفار فى مكة : « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » .

قوى عليهم كمد الحسد فرأوه بعين العبيد ، فقال مجنون .. يامحمد ، هذا نقش فص بصرهم ، لا لون وجهك .

ياجملة الجمال ، ياكل الكمال ، أنت واسطة العقد ، وزينة الدهر ، تزيد على الأنبياء زيادة الشمس على البدر ، والبحر على القطر ، والسماء على الأرض. أنت صدرهم وبدرهم ، وعليك يدور أمرهم ، أنت قطب فلكهم ، وعين كتبهم ، وواسطة قلادتهم ، ونقش فصهم ، وبيت قصدهم .

شمس ضحاها ، هلال ليلتها . عروس مقاصيرها ، الخلائق أشخاص ، والأنبياء قلوب ، ونبينا عليه الصلاة والسلام سرهم .

لما أخذ فى سير أسرى ، فنقل إلى المسجد الأقصى ، خرج إليه عبّاد الأنبياء من صوامعهم ، فاقتدوا بصلاة راهب الوجود ، لو كان موسى وعيسى حيين (١) ! أمِطها عنك ياعمر ، أمع الشمس سراج ؟

الأنبياء كرمضان الصوم ، وشرح نبينا يوم العيد ، عرضت عليه الجنة والنار حتى عرف الطبيب العقاقير قبل تركيب الأدوية ، فلّ غرب سيف أتجعل فيها (٢) . ليلة المعراج ظنت الملائكة أن الآيات تختص بالسماء ، فإذا آية الأرض قد علت .

ليس العجب ارتفاع صعودهم (٣) لأنهم ذووا أجنحة ، إنما العجب لارتفاع جسم طبعه الهبوط بلا جناح جسدانى ! .

كان جبريل دليل الفلاة ، فلما وصل إلى مفازة ليس فيها عِلم ، عَلم أن الصدق أجود ، فقال : هاأنت وربك ، وقع فى بادية القرب ، فأمر حيث

---

(١) أى لو كان موسى وعيسى لآمنا به وصارا من أتباعه .

(٢) أى لم يعد مكان لقول الملائكة أتجعل فيها من يفسد فيها وآدم يحمل فى صلبه محمدا صلى الله عليه وسلم سيد المصلحين .

(٣) يعنى الملائكة .

هيبة التعظيم أن أخرس لسان الطبع ، فقال « لا أحصى ثناء عليك » .

كادت الهيبة تلهيه ، لولا أنه تدورك برش ماء « السلام عليك » .

فإذا قامت القيامة فموسى صاحبه ، وعيسى حاجبه ، والخليل أمير جنوده ، وآدم ينادى بلسان حاله : ياولد صورتى ، ويا والد معناى .

# الفصل الثالث

## فى آدم عليه السلام

إياك والذنوب ، فإنها أذلت أباك بعد عز « اسجدوا » وأخرجته من أقطار « اسكن »[1] .

مذ سبى الهوى آدم هـــوى

دام حزنه ، فخرج أولاده العقلاء محزونين ، وأولاد السبايا أذلة ، أعظم الظلمة ماتقدمها ضوء ، وأصعب الهجر ماسبقه وصل ، وأشد عذاب المحبوب وقت القرب ، كان حين إخراجه لاتمشى قدمه ، والعجب كيف خطا .

وتلفتت عينى فمذ خفيت عنى الطلول تلفت القلب

ياعجبا ! جبريل بالأمس يسجد له ، واليوم يجر بناصيته ، والمذنب يقول ارفق بى .

ياسائق البكرات استبق فضلتها على العذيب فظهر البكر معقور[2]

مانضب ماء عينه ، فما نزل من مائها يجرى على خد الأسى لأيام الوصال ، واللسان يقول : ياويلتاه ! والقلب ينادى : يا لهفاه !

---

(١) يعنى « اسجدوا لآدم » و « اسكن أنت وزوجك الجنة » .

(٢) البكر الجمل العظيم .

من معيد أيام جمعى على ما كان منها وأين أيام جمعى
طالب بالفراق ينشد هيهات زمانا يالجزعى

كم قصة غُصة بعثها مع بريد السر ، لايدرى بها سوى القلب ، مكنونها التأسف ، وضميرها التلهف .

ألا يانسيم الريح من أرض بابل[1] تحمل إلى أهل العراق سلامى
وإنى لأهوى أن أكون بأرضهم على أننى منها استفدت سقامى

أخذت صعدا أنفاس آدم من ذكر « وعصى »[2] تحرقه ، لولا تدارك الحريق بمياه « فتاب عليه » .

حمّلوا ريح الصبا نشركم قبل أن تحمل شيحا وثماما

كان كلما عاين الملائكة تنزل من السماء تذكّر المرتع والمربع ، فتأخذ العين فى إعانة الحزين .

رأى بارقا من أرض نجد فراعه فبات يسح الدمع وجدا على وجد
فياشجرات القاع من بطن وجرة سقاك هزيم الودق مرتجس الرعد

كان عند رؤية الأملاك ، ويذكر إقطاعه الأملاك ، فيكاد يأس ، فيجعل الرجاء يأسا ، ثم قام بعد مراكب المنى يمشى إلى أرض منى ، فلولا تلقى الكلمات مات .

هل الأعصر اللاتى مضين يعدن لى كما كن لى أم لاسبيل إلى الرد

واعجبا لقلق آدم بلامعين على الحزن ! ! هوام الأرض لاتفهم مايقول ، وملائكة السماء عندها بقية « أتجعل فيها » فهو فى كربة بلا رحيم .

---

(١) يريد النسيم الساحر من بابل أرض السحر القديم .
(٢) إشارة إلى قوله تعالى « وعصى آدم ربه فغوى » .

ألا رحيم من آل ليلى فأشكو ما بقلبى حتى يكل لسانى

بكاء آدم لفراق الجنة لا كباء غيره .

وكانت بالعراق لنا ليال سرقناهن من ريب الزمان

ما كان هذا القلق لنفس الدار ، بل لأجل رب الدار

وما بى البان ، بل من داره البان

صحبى مضوا فؤدا معى منهلة فى إثر صحبى

مافرّق الهجران سهما فانثنى عن قصد قلبى

كلا ولا نادى الجوى إلا وكنت أنا الملبى

قال وهب بن منبه : سجد آدم على جبل الهند مائة عام يبكى ، حتى جرت دموعه فى وادى سرنديب ، فنبت من دموعه الدارصينى والقرنفل ، وجعلت طيور الوادى طواويس ، ثم جاءه جبريل عليه السلام فقال : ارفع رأسك ، قد غفر الله لك ، فرفع رأسه ، ثم أتى البيت فطاف أسبوعا ، فلما أتمه حتى خاض فى دموعه :

دموع عينى مذ قد جد بينهم هن الدوالى أو هن الدوالى(١)

كان آدم يعقوب البلاء ، جرى القضاء بزلله ، فما ذنب اللقمة .

ولكن ظفرتم بالمحبين فاقتلوا

قدح أريد كسره ، فسلم إلى مرتعش ، «لولم تذنبوا» واعجبا اكان يبكى للدار مرة ، وللجبار ألفا ، والفراق يقلقل ، والبعاد يزلزل .

وإنى لمشتاق إلى طيب وصلكم كما اشتاق نحو الدار من طال بعده

سأبكى الدما شوقا إلى ساكن الحمى فأفنى به كنز اصطبار ذخرته

ولم أبك بُعد الدار عنى وإنما بكيت لصبر كان لى فعدمته

---

(١) الدوالى الأولى يعنى السواقى ، والثانية تعنى أن البكاء دواء له . جناس

# الفصل الرابع

## فى وصف الربيع

إذا تأيمت [١] الأرض من زوج القطر ، ووجده لفقده مس الجدب ، أخذت فى لبس ثياب « وترى الأرض هامدة » .

فإذا قوى فقر الفقر ، مد أكف الطلب ، يستعطى زكاة السحاب ؛ فساق الصانع بعلا يسقى بعلا ، فثارت للغياث مثيرة ، فجاء الغيث بلا مثيرة « فسقناه إلى بلد ميت » ، وتأثير صناعة المعلم فى البليد أعجب .

فلبس الجو مطرفة الأدكن ، وأقبلت خيالة القطر شاهرة سيوف البرق ، فأخذ فراش الهوى يرش خيش النسيم ، وباحت الريح بمكتوم المطر ، فاستعاد السحاب جفون العشاق ، وأكف الأجواد ، فامتلأت الأودية أنهارا ، كلما مستها يد النسمة حكى سلسا لها سلاسل الفضة . فالشمس تسفر وتنتف [٢] ، والغمام يرش وينسكب ، فلما وقعت شمس الشتاء فى الطفل ، نشأ طفل الزرع ، فارتبع الربيع أوسط بلاد الزمان ، فأعار الأرض أثواب الصبا ، وروح كربها بنسيم الصبا ، فانتبهت عيون النور من سنة الكرى ، ونهضت عرائس النبات ترفل فى أنواع الحلل ، فكأن عين النرجس عين ، وورقه ورق [٣] ، فالشقائق تحكى لون الخجل .

فالشقائق تحكى لون الخجل ، والبهار يصف حال الوجل ، والنيلوفر يغفو

---

(١) الأيم التى لا روح لها .

(٢) يعنى تغيب وراء السحاب .

(٣) عين النرجس عين يعنى زهرة النرجس كأنها عين إنسان ، والورق بضم الواو نوع من الحمام .

وينتبه ، والأغصان تعتنق وتفترق ، والأراييح قد بثت أسرارها إلى النسيم فنم ، فاجتمعت فى عرس التواصل فنون القيان[1] ، فعلا فن على فن ، فتطايرت الأطيار مناظرات بالسجوع ، فأعرب كل بلغته عن شوقه ، وعبر كل بلسان حاله عن توقه[2] ، فالحمام يهدر ، والبلبل يخطب ، والمكاء يغرد ، والأغصان تتمايل ، كلها تشكر عقدة النكاح ، فحينئذ تجد خياشيم الشوق ضآلة وجده .

لى بذات البين أشجان حبذا من أجلها البان
حبذا رياه يوقظه من نسيم الفجر ريعان
حبذا ورق الحمام إذا رنحتها منه أغصان
داعيات بالهديل لها فيه أسجاع وألحان
أعجميات إذا نطقت ليس إلا الشوق تبيان
كلما غنيتنى هزجا هاجنى للذكر أحزان
مال بى ميل الغصون بها طربى فالكل نشوان
ياحمام البان يجمعنا وجد ناه إذ نحن جيران
نحن بالشكوى إلى فما بين أهل الشوق كتمان
يتشاكى الواجدون جوى واحداً والوجد ألوان
أنا مخلوس القرين[3] وأنـ ـتن أزواج وأقران
وبعيد الدار عن وطنى ولكن البان أوطان
ألا من داء لى أكاتمه والهوى سر وإعلان
لاترد بى لاعذول جوى أنا بالأشواق حيران

---

(١) القيان : الجوارى المغنيات .
(٢) التوق : الشوق .
(٣) أى مفارق لقرينه وحبيبه .

# الفصل الخامس

فيه إشارات عن حال سلمان الفارسى رحمه الله تعالى

سابقة الأزل قضت لقوم بدليل « سبقت » ، وعلى قوم بدليل « غلبت » فوا أسفاه ، أين المفر .

توفيق سبقت نور قلوب الجن فقالوا : « إنا سمعنا قرآنا عجبا . يهدى إلى الرشد » ، وخذلان غلبت أعمى قلوب قريش فقالوا : « أساطير الأولين » .

أهل الشمال فى جانب جنوب البعد ، وأهل اليمين فى مهب شمال القرب، مانفعت عبادة إبليس وبلعام ، ولا ضر عناد السحرة .

وحد قس ومارآى الرسول ، وكفر ابن أبى[1] وقد صلى معه فى المسجد .

ليس مع الضب رى يكفيه ولاماء ، والسمكة غائصة فى الماء ولارى .

دخل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بيت يهودى يعوده ، فقال له : « أسلم تسلم » فنظر المريض إلى أبيه ، فقال : أجب أبا القاسم ، فأسلم .

كان فى البيت غريبا مثل « سلمان منا » ، فصاحت ألسنة المخالفين: مالمحمد ولنا ؟ ولسان الحال يقول : مريضنا عندكم .

كيف انصرافى ولى فى داركم شغل

المناسبة بينة مابين الأشخاص، فاحتمل موسى مرارة الغربة فى دار فرعون، وإن كان فى آسية مايسلى ، غـــير أن حق الأم أحق . فضرب على فيه

---

(١) هو قس بن ساعدة الخطيب الجاهلى الذى أعلن فساد عبادة الأصنام فى عكاظ ، وابن أبى بن سلول وهو عبد الله زعيم المنافقين .

فدام[1] « وحرمنا » فدام إلى أن أمته الأم بحق ، فضرب عود العَوْد عند اجتماع الشمل .

سلام عليكم كيف حالكم بعدى
وهل عندكم من لوعة الشوق ماعندى

سبق العلم بنبوة موسى ، وإيمان آسية ، فسيق تابوته إلى بيتها ، فيه طفل منفرد عن أم ، إلى امرأة خالية عن زوج .

قرينان مرتعنا واحد

لما قضيت فى القدم سلامة سلمان ، حملته صبا الصبا نحو الدين ، كان أبوه على اعتقاد المجوس ، فعرج به دليل التوفيق إلى دير النصارى ، فأقبل يناظر أباه فى دين قد أباه ، فلم يكن لأبيه إلاالقيد ، وهذا الجواب المرذول . قديم من يوم : « أنا أحيى وأميت » « ثم نكسوا » فقالوا : « حرقوه » فنزلت فى البداية ضيف « ولنبلونكم » .

لولا مكابدة البلاء مانيلت « رب أشعث أغبر لو أقسم » ، فسمع أن راكبا على نية السفر ، فسرق نفسه من حرز أبيه ولا قطع ، فركب راحلة العزم يرجو إدراك مطلب الغنى ، غاص فى قعر بحر البحث ليقع بدره الوجود . فصاح به الهوى : إلى أين ؟ فقال : « إنى ذاهب إلى ربى » .

وقف نفسه على خدمة الأدلاء وقوف الأذلاء ، فلما أحس الرهبان بانقراض دولتهم زودوه فى سفره إلى طلب علم الأعلام ، على أمارات نبينا عليه السلام ، وقالوا : إن زمانه قد أظل ، فاحذر أن تضل ، وإنه يخرج بأرض العرب ، ثم يهاجر إلى أرض بين حرتين ، فلو رأيته ! ؟ قد افتلى الفلا وحادى الشوق له سوق ، والحنين يزعجه ، والتلهف يقلقه .

---

(١) أى لثام تحريم المراضع .

وأبغضت فيه النخل والنخل يانع
وأعجبنى من حبك الطلح والضال
وأهوى لحبيك السماوة والغضى ولو أن صنفيه وشاة وعذال

رحل مع رفقة لم يرفقوا به «فشروه بثمن بخس» ، اشتراه يهودى بالمدينة فانجبر انكساره فيه بإنعام «سلمان منا أهل البيت» ، وتوقد شوقه برؤية الحرتين ، وما علم المنزل بوجد النازل .

أيدرى الربع أى دم أراقا وأى قلوب هذا الركب شاقا؟
لنا ولأهله أبدا قلوب تلاقى فى جسوم ماتلاقى

فبينا هو يكابد ساعات الانتظار ، جاء البشير بقدوم الرسول ، وسلمان فى رأس عذق نخلة فكاد العذق يلقيه ، لولا أن الحزم أمسكه ، كما جرى يوم «إن كادت لتبدى به» .

ثم عجل النزول ليلقى ركب البشارة ، وأى ثبات بقى ليعقوب فى حال «إنى لأجد» .

خليلى من نجد قفابى على الربا فقد هب من تلك الرسوم نسيم

فصاح المالك : مالك ؟ وهذا : انصرف إلى شغلك .

كيف انصرافى ولى فى داركم شغل

ثم أخذ يقربه ، وأخذ لسان الشوق يترنم ، لوسمعه الأطروش :

خليلى ، لا والله ما أنا منكما إذا علم من آل ليلى بدا ليا

فلما لقى الرسول ، عارض نسخة الرهبان بكتاب الأصل ، فوافق، ورافق.

# الفصل السادس

سفر الليل لايطيقه إلا مضمر المجاعة ، فأما الشبع فإنه يجمع جنود الكسل ، فيتشبث بذيل التوانى ، ويزين حب النوم ، ويزخرف طيب الفراش ، ويخوف برد الماء ، فإذا ثارت شعلة من نار الحزم أضاءت لها طريق القصر ، فسمعت أذن اليقين هاتف : « هل من سائل » .

فقمت أفرش خدى فى الطريق له
ذلا وأسحب أذيالا عـــلى الأثر

نفس المحب فى الليل على آخر نفس،وفى المعذبين بقية «وهم يستغفرون» صراخ الأطفال غير بكاء الرجال ، سهر الليل هودج الأحباب ، يوقظ نسيم الأسحار أعين ذوى الأخطار ، فلو رأيتم ؟

وقد لاحت الجوزاء ، وانحدر النسر

قد افترشوا بساط قيس ، وباتوا بليل النابغة (١) ، إن ناموا توسدوا أذرعا لهم ، وإن قاموا فعلى أقدام القلق ، كأن النوم حلف على جفا أجفانهم .

هذا رضاك نفى نومى فأرقنى فكيف يافاتنى لو كنت غضبانا

ما أزالو مطايا الأقدام ، إلى أن نم النسيم بالسحر ، وقام الصارخ ينفى الظلام ، فلما تمخض الدجى بحمل السحر تساندوا إلى رواحل الاستغفار .

شكونا إلى أحبابنا طول ليلنا فقالوا لنا : ما أقصر الليل عندنا

---

(١) تورية بقول النابغة الذبيانى وقد خاف من تهديد النعمان بن المنذر :
فبت كأن العائدات فرشن لى هراسا به يعلى فراشى ويقشب
الهراس : الشوك الدقيق . يقشب : يخلط .

رياح الأسحار أقوات الأرواح . دقت .. فراقت .. فبردت حر الوجد ، وبلغت رسائل الحب .

ألا ياصبا نجد متى هجت من نجد
لقد زادنى مسراك وجدا على وجد

مكروب الوجد مرتاح للنسيم وإن قلقل قلبه .

بين شمال وصبا حن شوق وصبا
ولم تزده نفحات الأ نس إلا وصبا(١)

عبارة النسيم لايفهمها إلا مشتاق ، وحديث البروق لايروق إلا للعشاق.

ومرنح فطن النسيم لوجده فروى له خبر العذيب وبارق

خلوا بالحبيب بدار المناجاة ، فكساهم ثياب المواصلة ، وضمخهم بطيب المعاملة ، وغالية السحر غالية (٢) ، يصبحون وعليهم سيما القرب .

تفوح أرواح نجد من ثيابهم

فتأسف ياجيفة النوم ، وابك ياعريان الغفلة ، أتدرى كيف مر عليهم الليل ؟ ألك علم بما جرى للقوم فى حبس الرقاد ؟ . . فك عنهم السبحان قيد الكرى بين النوح ، حتى استقر بالقوم المنزل ، فقام يتلمح الآثار على باب الكوفة ، والقوم فى شرعوا فى الإحرام .

من يطلع شرفا فيعلم هل روح الرعيات بالإبل
أم قعقعت عن الخيام أم ار تفعت قبابهم على النزل
أم غرد الحادى بقافية منها غراب البين فى وجل

---

(١) الوصب : شدة الألم .
(٢) غالية الأولى تعنى وعاء المسك ، والثانية بمعنى نفيسة .

كان حسان بن أبى سنان يخادع امرأته حتى تنام، ثم يخرج عن الفراش إلى الصلاة .

جرى حبه مجرى دمى فى مفاصلى فأصبح لى عن كل شغل به شغل
كأن سواد الليل يعشق مقلتى فبينهما فى كل هجر لنا وصل

كانت أم الربيع بن خيثم إذا أرادت أن تقلقه بالليل تقول : يابنى ، لعلك قتلت نفسا (١) ، فيقول: نعم قتلت نفسى ، وقالت أم عمر بن المنكدر لابنها : يابنى، أشتهى أن أراك نائما ، فقال : ياأماه ، من جن عليه الليل وهو يخاف البيات حق له ألا ينام ، يا أماه ، إن الليل ليرد على فيهولنى ، فينقضى عنى وما انقضى أربى .

ذق الهوى ، وإن اسطعت الملام لم

قيل لبعض الزهاد : ارفق بنفسك ، فقال : الرفق أطلب .

كان أمية الشامى يبكى فى المسجد وينتحب حتى يعلو صوته ، فأرسل إليه أمير البلد : إنك تفسد على المصلين صلاتهم بكثرة بكائك ، وارتفاع صوتك، فلو أمسكت قليلا ، فقال : إن حزن القيامة أورثنى دموعا غزارا ، فأنا أستريح إلى درها أحيانا .

باللوم فيك ينصحونى والنصح خيانة اللوائم
المقعد والمقيم عندى مادت على الصدق دائم
مالى أجد الحمام أنى ناحت بآرائها الحمائم
كم صح على السلو عزمى والحب يحلل العزائم

غيره :

وكم من حديث قد خبأت إلى اللقا
فلما التقينا صرت أخرس ألكنا

(١) المعروف فى كتب الطبقات أنها كانت تلومه بهذا القول على كثرة بكائه .

# الفصل السابع

## فى التوبة

يامؤخر التوبة بمطل التسويف « لأى يوم أجلت » ؟ . كنت تقول : إذا شبت تبت ، فهذى شهور الصيف عنا قد انقضت ، لو كان لسيف عزمك جوهر به تفل ؟ ! يموت الهوى تحت ظبية طرب السيف ، كل يوم تضع قاعدة إنابة ولكن « على شفا جرف » . كلما صدقت لك فى التوبة رغبة حملت عليها جنود الهوى حملة فانهزمت .

ويحك !! تعطر بالاستغفار فقد فضحتك روائح الذنوب .. اذبح حنجرة الهوى بسكين العزيمة ، فما دام الهوى حيا فلا تأمن قلب قلبك .

اجعل بكاءك فى الدجى شفيعا فى الزلل . . فزند الشفيع يورى نار النجاح .

اكتب بمداد الدمع حسن الظن إلى من يحققه ، فلا نفع فى توبتك إلا بمكابدة حزن يعقوب . أو بصبر يوسف عن الهوى . فإن لم تطق فبذل إخوته يوم « تصدق علينا » [1] .

يامعسر الأقدام ، هذى مشاعل القبول . . يافارغ البيت من التوت هذه أيام اللقاط . . يامهجور كنعان [2] متى تجد ريح يوسف ؟ . يامسجون قصر مصر [3] متى يرى الملك سبع بقرات ؟ . يابنيامين الفراق متى نغمات : « أنا أخوك » ، يادائم الزلل ، متى تصنع حبيب .

---

(١) قالوا له ذلك حينما احتجز أخاه منهم بدعوة سرقة صواع الملك .
(٢) مهجور كنعان كناية عن يعقوب .
(٣) كناية عن يوسف .

اليوم عهدكم فأين الموعد هيهات ، ليس اليوم ، عهدكم غد

إذا وقعت عزيمة الصدق فى قلب العبد الثابت ، رضى الملك ، فأنسى الملك ما كتب ، فأوحى إلى الأرض : اكتمى على عبدى .

قتل رجل منكم مائة نفس ، ثم خرج تائبا ، فأدركه الموت ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة ، وملائكة العذاب فبعث الله ملكا يحكم بينهم فقال : قيسوا ما بين القريتين ، فأوحى الله إلى هذه : أن تباعدى ، وإلى هذه أن تقاربى ، فوجد أقرب إلى قرية الخير بشبر ، فغفر له ، والحاكم والخصوم لا يعرفون سر ذلك ، « كذلك كدنا ليوسف » .

إذا صدق التائب أحببناه ، وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس ، يامعاشر التائبين أوفوا بالعقود ، أنظروا من عاهدتم . « ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها » ، فإن زللتم من بعد التقويم ، فارجعوا إلى دار المداراة ، فإن الله لا يمل حتى تملوا .

عودوا إلى الوصل عودوا فالهجر صعب شديد
كنا وكنتم جميعا . . . فأين تلك العهود
تذكرونا فما عهدنا لديكم بعيد
هل يرجع البان يوما وهل تعود زرود

## الفصل الثامن

## فى النفس

يامقهورا بغلبة النفس صل عليها بسوط العزيمة ، فإنها إن عرفت جدك استأمرت لك ، وامنعها لذيذ مباحها ، ليقع الاصطلاح على ترك الحرام ، فإن صبرت على ترك المباح « فإما منا بعد وإما فداء » الدنيا والشيطان خارجان

عنك ، والنفس عدو مباطن ، ومن أدب الجهاد «قاتلوا الذين يلونكم من الكفار» .

إن مالت إلى الشهوات فاكبحها بلجام التقوى، وإن أعرضت عن الطاعات فسقها بسوط المجاهدة ، وإن استحلت شراب التوانى ، واستحسنت ثوب البطالة ، فصح عليها بصوت العزم ، فإن رمقت نفسها بعين العجب فذكرها خساسة الأصل ، وإنك والله مالم تجد مرارة الدواء فى حلقك ، لم تقدر على ذرة من العافية فى بذلك .

قد اجتمعت عندك جنود الهوى، فى تيه النفس ، فأحكمت حصن البطالة، فياجنود التقى ، جردوا سيوف العزائم ، وادخلوا عليهم الباب .

النفس مثل كلب السوء ، متى شبع نام ، وإن جاع بصبص(١) ، الحر يلحا ، والعصا للعبد .

كان أحد السلف إذا قهر نفسه بترك شهوة ، أقيل يهتز اهتزاز الرامى إذا قرطس . إذا قوى عزم المجاهدة ، لان له الأعداء بلا حرب ، لما قويت مجاهدة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم تعدت إلى كل من تعدى ، فأسلم شيطانه ، اللهم دلنا على قهر نفوسنا التى هى أقرب أعدائنا إلينا ، وأكثرهم نكاية فينا .

ياهذا ، بدل اهتمامك لك ، باهتمامك بك ، واسرق منك لك ، فالعمر قليل، تظلم إلى ربك منك ، واستنصر بخالقك عليك ، أمرك بالجد وأنت على الصد ، أبدا تفر من طريق نجاتك ، تطلب نيل العمل ، وما ارتضيت درجة المجاهدة .

أترام الحصاد ولم تبذر ؟ لولا إيثار يوسف «السجن أحب إلى» ماخرج إلى راحة «مكنا» .

---

(١) يعنى حرك ذنبه طلبا للطعام .

رب خفض تحت السرى وغنى  من عنا ونضرة من شحوب

لما قوم المؤمنون أنفسهم بالرياضة وقع عقد « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » والنفس إذا لم ترض عضت ، لأنها كلب عقور ، وإنما يراد ( كلب ) الصيد لا العضوض .

ويحك ! الأعضاء كالسواقى، والمياه النجسة تؤثر فى البحار ، أنت تستفتح النهار بإخلاق جوارك فى صيد اللهو ، فإذا جاء حين الصلاة نعقت بها ، وليست معلمة ، فلا تجيب . هيهات أن يخشع طرف ماقومه محتسب(١) بغضوا ويحضر قلب ماحوفه « يعلم السر وأخفى » .

الناس من الهوى على أصناف  هذا نقض العهد وهذا وافى
هيهات، من الكدور يبقى الصافى  مايصلح للحضرة قلب جافى

# الفصل التاسع

## فى الدنيا

أنت فى حديث الدنيا أفصح من سحبان وائل ، وفى ذكر الدار الآخرة أعيا من باقل ، تقدم على الفانى ولا إقدام ابن معد يكرب(٢) ، وتجبن عن الباقى ولا جبن حسان (٣) .

ويحك !! إنما معجب الدنيا من لافهم له ، كما أن أضغاث الأحلام تسر

---

(١) المحتسب موظف فى الدولة الإسلامية للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.
(٢) هو عمرو بن معد يكرب الزبيدى ، كان يسمى : ماتق زبيد لشراهته على الطعام .
(٣) هو حسان بن ثابت رضى الله عنه ، لم تمكن له شجاعة على الحرب .

النائم ، لعب الخيال ، يحسبه الطفل حقيقة ، فأما العاقل فلا يغتر .

كم أتلفت الدنيا فى مبدأ طلبها ، وكم عاقت عن وصول بلد الوصل . كم ساع سعى إليها سعى الرخ [1] ردته معكوسا رد الفرزان .

ياأبناء الدنيا ، إنها مذمومة فى كل شريعة ، والولد عند الفقهاء يتبع الأم، متى نبت الجسم من الحرام فمكاسبه كزيت بها يوقد .

عمر مع كماله يقول : ياحذيفة ، هل أنا منهم [2] ؟ وأنت آمن مع ذنوبك إذا كان بنيامين نسب إلى السرقة فأى وجه لخلاص يرجى ، رؤى عمر بعد موته باثنى عشرة سنة . فقال : الآن تخلصت من حسابى .

واعجبا !! أقيم للحساب أكثر من سنى الولاية، أفتنتبه لهذا ياراقد الهوى.

يامتلطخا بأقذار الظلم بادر الغسل عن مد الصفو قبل أن تحرم، لايغرنك عيش أحلى من العسل ، فالمحاسة أمر من العلقم ، ستعلم أيها الغريم قدر غريمك ، إذ يلتقى كل ذى دين وماطله .

الحجر المغصوب فى البناء أساس الخراب ، ليت الحلال يسلم ، فكيف الحرام .

كان لبان يخلط اللبن بالماء ، فجاء سيل فأهلك الغنم ، فجعل يبكى ويقول : اجتمعت تلك القطرات فصارت سيلا ، ولسان الجزاء يناديه : يداك أوكتا، وفوك نفخ .

كم بكت من بغى الظالم عين أرملة ، واحترقت كبد يتيم « وليعلمن نبأه بعد حين » ، ياعجبا من الظلمة ، كيف ينسون طى الأيام سالف الجبابرة ، وما بلغوا معشار ما آتيناهم .

---

(١) طائر عظيم له مقدرة فائقة على الأسفار البعيدة .

(٢) حذيفة بن اليمان رضى الله عنه كان يعرف أسماء المنافقين على عهد النبى صلى الله عليه وسلم .

أما شاهدوا حالهم ؟ « فكلا أخذنا بذنبه » أما رحلوا على أكوار الندم « فما بكت عليهم السماء والأرض » أما صاح بهم هاتف الهرم : « كم تركوا من جنات وعيون » .

ياعجبا للمغترين ! ! ( وقد خلت من قبلهم المثلات ) » ، أما يكفيهم من الزواجر : « وتبين لكم كيف فعلنا بهم » ؟ من لهم إذا طلبوا وقت الفوت القود ، « وحيل بينهم وبين مايشتهون » .

دار دارت بنعم النعم ، دارت عليها دوائر النقم ، « فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس » .

يا معشر الظلمة ، سليمان الحكم قد حبس آصف [1] العقوبة ، فى سجن ( فلا تعجل عليهم ) وأطلق رخاء الرخاء ، لئلا يكون للناس حجة ( ولقد هبت سموم الجزاء من مهب ( ولئن مستهم نفحة ) ، تقلقلت سكرات ( إنما نملى لهم ) ، ( فلا يستطيعون توصية ) .

فالحذار الحذار ( أن تقول نفس يا حسراتاه ) ولات حين مناص .

أبقى فى موسى الزجر ( أفنضرب عنكم الذكر صفحا ) سفينة التقى تحتاج إلى إحكام تام ، واللمم [2] منافذ صغار فى مواضع الدسر ، فأحكم تلك البقاع بقار الورع [3] . هيهات ، قد خرقتها بالكبائر ، وماتنبهت لما صنعت حتى يصيح نوح الأسا : ( لاعاصم اليوم ) لهؤلاء .

فنقاش العذل إذا لم ينتزع شوك الظلم أثر ، مالم يؤمن تعديه إلى القلب لاتغر به ، وافى سكر القدرة ، فصاحب الشرطة بالمرصاد .

---

(١) اصف بن برخيا الذى كان عنده علم من الكتاب وعرض على سليمان أن يأتيه بعرش بلقيس فى لمح البصر .

(٢) اللمم : الصغائر من الذنوب .

(٣) الورع : ترك ما فيه شبهة مخافة الوقوع فى الحرام .

ويحكم ! ! لاتحقروا دعاء المظلوم ، فشرر نار قلبه محمول بريح دعائه إلى سقف بيت الظالم ، نبله غرب لأنصرنه ولو بعد حين ، شهم سهمه الإصابة.

وقد رأيت وفى الأيام تجريب

## الفصل العاشر

إخوانى ، ارفضوا الدنيا ، فقد رفضت من كان أشغف بها منكم ، اتعظوا بمن كان قبلكم قبل أن تتعظ بكم . الدنيا خمر ساعدها تغريد الطبع ، فاشتد سكر الشراب ، ففات موسم الربح ، ثم بعد الإفاقة يقام الحد ، فيقيم قائم الحزن ، ويكفى فى ضرب الأمثال موت الجيران ، فإذا ماتوا انتبهوا .

ويحك ! ! إن الموت حساب ، والشيب وبله [1] ، ومن بلغ السبعين اشتكى من غير علة ، والعاقل من أصبح على وجل من قريب الأجل .

يا هذا ، الدنيا وراءك ، والآخرة أمامك ، والطلب لما وراءك هزيمة ، وإنما العزيمة فى الإقدام ، جاء طوفان الموت فاركب سفينة التقى ، ولاترتفق كنعان الأمل .

ويحك ! ! انتبه لاغتنام عمرك ، فكم يعيش الحيوان حيوان الأسقام ، تزعج الأبدان فلا بد من النحول ضرورة ، كأنك فى لحدك على فراش الندم ، وإنه والله لأخشن من الجندل ، فازرع فى أرضك قبل جدوثة أرض شخصك . وادخر من قوت قدرتك قبل زمان عجزك ، واعتبر رحلك قبل رحيلك مخافة الفقر اللازم فى الفقر .

الحذار الحذار ( أن تقول نفس ياحسرتا على مافرطت فى جنب الله ).

---

(١) الوبل : أوائل المطر .

الحازم يتردد لما به، شجرة الحزم أصلها إحكام النظر ، وفروعها المشاورة فى المشكل ، وثمرتها انتهاز الفرص ، وكفى بذهاب الفرصة غصة .

وكم فرصـــة فاتت فأصبح ربها
يعض عليها الكف أو يقرع السنا

واعجبا ! ! لمضيع العمر فى التوانى ، فإذا جاء متقاضى الروح قال : إنى تبت الآن ، ( وأنى لهم التناوش من مكان بعيد ) .

يارابطا مناه بخيط الأمل ، ألا إنه ضعيف الفتل ، لوفتحت عين التيقظ لرأيت حيطان العمر قد تهدمت فبكيت على خراب دار الأمل ، جسمك عندنا ، وقلبك على فراسخ ، لا بالتسويف ترعوى ، ولا بالتخويف تستوى ضاعت مفاتيحى معك .

## الفصل الحادى عشر

## خوف السابقة

خوف السابقة ، وحذر الخاتمة قلقلا قلوب العارفين ، وزادهم انزعاجا ( يحول بين المرء وقلبه ) ليس لهم فى الدنيا راحة ، كلما دخلوا سكة من سكك السكون ، أخرجهم منها الجزع إلى شارع من شوارع الخوف .

أروح بشجو ثم أغدو بمثله وتحسب أنى فى الثبات صحيح

حكم القوم العلم ، فحكم بالعمل ، فقاطعوا التسويف الذى يقطع أعمار الأغمار[1] ، وانتهوا فانتبهوا لليل والنهار . أخرجوا قوى العزائم إلى الأفعال ، فلما قضوا دين الجد ، قضت علومهم بالحذر من الرد ، حنوا فأنوا وانزعجوا

---

(١) الأغمار العامة من الناس . أو الجهال منهم .

فما اطمأنوا .. أنفاسهم لاتخفى .. نفوسهم تكاد تطفا . لون المحب غماز ، دمع المشوق نمام ، من ضرورة دوران الدولاب أننه .

أخفى كمد الهوى ودمعى ... فى الخد على هواك شاهد
والجفن بلوعتى مقر ... للعاذل واللسان جاهد

تساوى فى قلب العارف جبل الرجاء وجبل الخوف، فلما وصل إسكندر الفكر ، ألقى زبر الهموم حتى ساوى بين الصدفين ، صاح بجند الفهوم : انفخوا ، فاستغاث الواجد لتراكم الكرب .

أيا جبلى نعمان بالله خليا ... نسيم الصبا يخلص إلى هبوبها

لاراحة للمحب فى الدنيا إن أحس بالحجاب ، لكن على البعد . وإن فتح له باب الوصل خاف الطرد .

فيبكى إن نأوا شوقا إليهم ... ويبكى إن دنوا خوف الفراق

من لم يذق لم يعرف .

من لم يبت والحب حشو فؤاده ... لم يدر كيف تفتت الأكباد

الفراق أظلم من الليل ، الوجد أحر من الجمر .

وفى فؤاد المحب نار جوى ... أحر نار الجحيم أبردها

اشتد قلق الحب بإبراهيم بن أدهم [1] فصاح : إلهى ، إن كنت أعطيت أحدا من المحبين مايسكن به قلبه قبل لقائك فأعطنى ، فقد أحرقنى القلق .

لو شئت داويت قلبا أنت مسقمه ... وفى يديك من البلوى سلامته
علامة كتبت فى خد عارفكم ... من كان مثلى فقد قامت قيامته

---

(١) ابن ملك بلخ خرج للصيد فسمع هاتفا من قربوس سرجه يقول : ياإبراهيم ، ماهذا خلقت . فترك بلخ وتزهد وساح .

فرآى الحق جل جلاله فى مقامه وهو يقول : يا إبراهيم ، أما استحييت منى تسألنى أن أعطيك ما يسكن به قلبك للقائى ؟ وهل يسكن قلب المحب إلى غير حبيبه .

يا سائق العيس (١) قد براها حمل هموم لهـا عظام
رفقابها إنها جـلود ملصقات على عظام
أشواقها خلفها وشوقى خلاف أشواقها أمامى

## الفصل الثانى عشر

اللهم نور ظلمة دنيانا بنور من توفيقك ، واقطع أيامنا فى طلب الاتصال بك ، فإنك إذا أقبلت سلمت ، وإذا أعرضت أسلمت .

إخوانى . إذا سبقت سابقة السعادة لشخص دلته على الطريق قبل الطلب . « ولقد اخترناهم على علم للعالمين » .

إن المقادير إذا ساعدت ألحقت العاجز بالحازم

كان ذوالبجادين يتيما فى الصغر ، فلما عمه الفقر كفله عمه ، فنازعته نفسه إلى اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهم بالنهوض فإذا بقية المرض مانعة ، فقال لسان التسويف للنفس : قفى حتى يتقدم العمر ، فلما تكاملت الصحة نفذ صبر المشتاق ، فقال : يا عم قد كنت أنتظر سلامتك بإسلامك ، وما أرى زمن زمنك ينشط . فقال : والله لئن أسلمت لأنزعن كل ما أعطيتك ، فصاح لسان عزمه : نظرة من محمد عليه السلام أحب إلى من الدنيا وما فيها ، هذا مذهب المحبين جميعا بلا خلاف .

---

(١) العيس : الجمال .

ولو قيل للمجنون ليلى ووصلها  تريد أم الدنيا وما فى زواياها
لقال غبار من تراب نعالها  أحب إلى نفسى وأشفى لبلواها

فعاد العم فى هبته حتى جرده من الثياب ، فناولته الأم بجاداً لها ، فقطعه نصفين ، فائتزر بواحد ، وارتدى بواحـــد ، وخرج ، فى حلة « رب أشعث أغبر » .

سنة الأحباب واحـدة  فإذا أحببت فاستسن

فنادى صائح الجهاد فى جيش العسرة ، فتبع ساعة الأحباب ، راكبا عجز العزم مع العجز ، والمحب لايرى طول الطريق ، إنما يتلمح المقصد .

ألا أبلغ الله الحمى من يريده  وبلغ أكناف المنى من يريدها
خليلى ليس الشيب عيبا لواننا  وجدنا لأيام الصبا من يعيدها

فنزل له ملك الموت بتوقيع : طال شوق الأبرار إلى لقائى ، فنزل له الرسول يمهد له اللحد ، لمأمور إذا رأيت لى طالبا فكن له خادما . وصاح بأبى بكر وعمر : أدليا إلى أخاكما ، ونثر عليه لآلىء : اللهم إنى أمسيت راضيا عنه . فارض عنه . فقال ابن مسعود : ليتنى كنت صاحب اللحد .

## الفصل الثالث عشر

يا هذا ، حب الدنيا أقتل من السم ، وسرورها أكثر من النمل ، وعين حرصك عليها أبصر من الهدهد ، وبطن أملك [1] أعطش من الرمل ، وبهم شرهك أشرب من الهيم .

إن خضت فى حديثها فأفصح من سحبان [2] ، وإن انتقدت دنانيرها

---

(١) كناية عن الأرض . وعلى هامش الأصل : أى الدنيا . وهو تفسير للصوفية المتأخرين .

(٢) خطيب جاهلى من بنى وائل . يضرب به المثل فى الفصاحة .

فأحسب من دعفل ، حيلتك فى تحصيلها أدق من الشعر ، فى تدبيرها أصنع من النحل ، تجمع فيها الذر جمع الدر .

يا رفيقا فى البله لدود القز ... واعجبا ، ماانتفعت بموهبة العقل
فأنت كدود القز ينسج دائما ... ويهلك غما وسط ما هو ناسجه

وحرصك بعد الشيب أحر من الجمر ، أبقى عزم يا أبرد من الثلج ؟ الدنيا فى قلبك أعزمن الروح وستصيد عند الموت أهون من الأرض ، أنت فى الشر أجرى من جواد ، وفى الخير أبطأ من أعرج . معاصيك أشهر من الشمس ، وتوبتك أخفى من السها . الزكاة عندك أثقل من أحد ، والصلاة عندك ثقل صخر على صدر . طريق المسجد فى حسبان كسلك كفرسخى دير كعب . صدرك عند حديث الدنيا أوسع من البحر ، ووقت العبادة عندك أضيق من عقد النسعين .

يامن هو عن نجاته أنوم من فهد ، ضيعت وقتا أنفس من الدر . إن عرضت خطيئته وثبت وثوب النمر ، وإن لاحت طاعة رخت روغان الثعلب ، فإذا عاملت الناس استعملت عذر الذئب ، تقدم على الظلم إقدام الأسد ، وتختطف الأمانة اختطاف الحدأة .

يا أظلم من الجلند ، أما تأمنك غزلان الحرم ؟ ياعذرى الهوى فى حب الدنيا ، يا كوفى الفقه فى تحصيلها ، يا بصرى الزهد فى طلب الآخرة ، ياعجبا لقلب أضعف من البعوضة ، كيف صار أقسى من الجندل .

ما يعجبه سجع قس ، ولا يؤثر فيه وعظ الحسن [1] ، ولا يرق لغزل جرير ، قليته فسر منام الأهل على ابن سيرين اليقظة ، قفل قلبك روى ، ما يقع عليه فش .

---

(١) يعنى الحسن البصرى .

# الفصل الرابع عشر

العقل رفيق القلب ، والطبع قرين النفس ، فلا تفاوت بين القلب والنفس . فرب جارٍ . سرادق القلب على أطناب العقل ، وخيمة النفس على أو تاد الهوى .

اكسر حدة خمر الهوى ، بمزاج ماء الرياضة ، اشدد أزر العقل بحبال التقى ، ماء طبعك أجاج ، وماء شرعك عذب . وقد مزج - للابتلاء - بينهما نور العقل ، يضيء فى ليل ظلام الطبع ، فتبين جادة الصواب للنساك . وزناد الفكر حين يودى ، يرى عواقب الأحوال .

يوسف العقل ينظر إلى العواقب . وزليخا الهوى تتلمح العاجل ، والعزائم منازل الأبطال ، واستعمال الصبر دأب الرجال ، وإنما رد يوسف عقله ، وحمل زليخا طبعها .

ولا أقول لك : اقلع شجر الطبع من أرض الوضع ، كيف يمكن ؟ وقد قال الله عزوجل : « زين للناس حب الشهوات من النساء » وإنما أقول : دم على المجاهدة فى الجسم . وكلما انبعث من عروق الهوى عرق فاقطعه ، وكلما كل مابه تقطع فاشحذه . اقنع بساحة الذل ، فعند المسجون شغل من الرباط ، اترك وأنت تهوى .

وفى القلب ما فى القلب من لوعة الجوى
ولكننى أبدى الصدور مبهرجا

إخوانى ، من أفسد حسابه بالخيانة استحيا من عرض الدستور . من توسخت ثياب معاملته بالمعاصى لم يقرب من المقربين . من سودت الذنوب وجه جاهه ذل بين الأكرمين ، من ركب ظهره التفريط نزل به دار الندامة .

أما سمعتم أن داود عليه السلام أعطى نعمة نغمة كان يقف لها الماء فلا يسير ، والطير تقف وقوف الأسير . فعمل مرض من خرق حجاب يغضوا ، فامتدت به يد البصر ، فقدت قميص يوسف العصمة ، فأثر زلله حتى فى تلاوته وقد كان معيار الوصال . يتفقد قديما آلات صوته ، فلما أقبل على الذنب أعرض المعراض عن المراعاة ، فتشعث منزل الصفا ، وانقطعت جامكية العسكر ، فتفرقت جنود « أوبى » فيالك من جرح تعز مراهمه .

كان عش عيشه رغدا فأحالته حالة الهجر ، وكانت أيام الوصال مشرقة فصار إناؤها بماء الصد مفرقة ، فكاد يقطع باليأس حتى ألتقى الخضر بإليـــاس :

أرقى قد ترقّ لى من أرقى ورثا لى قلقى من قلقى
وبكائى من بكائى قد بكا وتشكى حرقى من حرقى

كان إذا أراد النياحة نادى مناديه : ألا من أراد أن يسمع نوح داود فليخرج ، فيجتمع أهل الأحزان فى مأتم الندم ، فيزاداد الحزن بالتعاون .

يا بعيد الدار عن وطنه مفردا يبكى على شجنه
كلما جد النحيب به زادت الأسقام فى بدنه
ولقد زاد الفؤاد شجا طائر يبكى على فننه
شاقه ماشاقنى فبكى كلف يبكى على سكنه

الإخلاص مسك مصون فى مَسك القلب ، ينبه ريحه على حامله . العمل صورة ، والإخلاص روح ، إذا لم تخلص فلا تتعب ، لو قطعت سائر المنازل لم تكن حاجا إلا بشهود الموقف .

لاتغتر بصورة الطاعات ، فإن خصم الإخلاص إذا جاء عند حاكم الجزاء ألزم الحبس عن القبول ، سوق الإخلاص رائجة ليس فيها كساد ، المخلص

بعد طاعاته لاحتقارها عرضا ، وقلم القبول قد أثبتها فى حيز الجوهر .

المخلص مبهرج على الخلق ، يستر الحال . وبهرجه يصح النقد . لما وصف الرسول عليه السلام للصحابة حال الخمول (١) من حُلَّته حلية أويس عمل معْوَل الشوق فى قلب عمر ، فكان فى كل ينشد بلفظ الطلب ، ويكنى عن أهل اليمن .

ألا أيها الركب اليمانون عرجوا ... علينا فقد أمسى هوانا يمانيا
نسائلكم هل سال نعمان بعدنا ... وحب إلينا بطن نعمان واديا

فلما لقيه عمر قال : من أنت ؟ قال راعى غنم وأجيرُ قوم ، وستر ذكر أويس .

الأولياء تحت ستر الخمول ، ما يعلمهم إلا قليل ، فإن عرفتهم بسيماهم فتلح نقاء الأسرار لادنس الثياب . « ولا تعد عيناك عنهم » .

كان فى ثوب أيوب السختيانى بعض الطول لستر الحال ، وكان إذا تحدث فرق قلبه ، وجاءه الدمع قال : ماأشد الزكام .

أفدى ظباء فلاة ماعرفن بها ... مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب

كان إبراهيم بن أدهم إذا مرض يجعل عند رأسه مايأكله الأصحاء ، لئلا يتشبه بالشاكين ، هذه والله بهرجة أصح من نقدك .

قد سحب الناس أذيال الظنون بنا ... وفرق الناس فينا قولهم فرقا
فكاذب قدرمى بالظن غيركم ... وصادق ليس يدرى أنه صدقا

أشد أعمال القوم كتمان الأحوال ، يتصدق بيمينه فيخفيها عن شماله ،

---

(١) ليس معنى الخمول هنا هو المعنى الدارج أى خمول المواهب ، بل معناه العمل فى صمت ، مع كراهيته الشهرة . « انظر البحث مستفيضا فى ملاحق روضة التعريف لابن الخطيب . من تحقيقنا . نشر دار الفكر العربى بالقاهرة » .

كان النخعى إذا قرأ فى المصحف فدخل داخل غطاه . وكان ابن أبى ليلى يصلى فإذا دخل عليه أحد نام على فراشه . كان الحسن تأتيه عبرته فيسترها ، فإذا خشى أن تسبقه قام من المجلس :

باح مجنون عامر بهواه وكتمت الهوى فمت بوجدى

سحقت نافجة مسك المحبة ، فبثت فى محاريب المتعبدين . وليس كل ثوب يعلق به الطيب . رب قائم حظه السهر ، كم مراء يتعب فى تهجده ، فتنغص ريح الرياء أوراق تعبده ، فتبقى أغصان العمل كالسُّلاَ ، وليس للشوك نسيم « فلو صدقو الله لكان خيرا لهم » .

إذا بهرج المنافق على عمل المخلص فاحت أراييح النفاق ، فتجافته القلوب لجيفته ، فذهب عمله جفاء .

واعجبا من أهل الرياء ، على من يبهرجون ؟ « وربك يعلم ماتكن صدورهم » غلب على المخلصين الخشوع ، فجاء المرائى يتبهرج . فقيل له : مهلافا لناقد بصير .

لما أخذ دور القزينسبح ، فجاءت العنكبوت تتشبه به ، فنادى لسان الحال الفارق .

إذا اشتبهت دموع فى خدود تبين من بكى ممن تباكى

## الفصل الخامس عشر

يامختار القدر اعرف قدر قدرك . إنما خلقت الأكوان لأجلك ، أقبل على فإنى عليك مقبل ، متى رمت طلبى فاطلبنى عندك بدليل « وسعنى » .

ساكن فى القلب يعمره لست أنساه فأذكره
غاب عن سمعى وعن بصرى فسويدا القلب تبصره

بينا عهد يوم « ألست بربكم » شجراته تسقى بماء هل من سائل .

إذا مرضتم أتيناكم نعودكم وتذنبون فنأتيكم فنعتذر

أودعت إقرارك الحجر الأسود ، وأمرتك بالحج لتستحي بالتذكر من نقض العهد .

تشاغلتمُ عنا بصحبة غيرنا وأظهرتم الهجران،ماهكذا كنا

الحجر الأسود صندوق أسرار المواثيق ، مستملٍ لما أملى المعاهد . مشتمل على حفظ العهود ، فاستلم المستملى المملى ، لتعلم أن إقرارك لاعن إكراه . إن كنت نسيتنى فما نسيتك .

فلا تحسبوا أنى نسيت ودادكم فإنى وإن طال المدى لست أناسكم

حفظنا وضيعتم عهود ودادكم فلا كان من بالهجر واللوم أغراكم

ياحدثا فى عهد : «بلى» ماليس فيه ، تطهر من أدران الزلل . فلا بد للمحدث من طهارة . خلقتك يوم الفطرة طاهرا ، ووفرت نصيبك من رش نورى عليك ، فأينعت أغصان الإقرار ، وهدلت حمائم الوفاق ، وتدلت ثمار الوفاء .

فلما تدنست بالذنب عطشت أرض الوصال ، فذوت أغصان المحبة ، وأجدبت أرومه المعاملة ، فطاف على جنة العزم طائف المطارحـــة ، فأصبحت كالصريم .

فنكس الآن رأس الذل طول شتاء الهجر . وابعث بريد الأسى ليبعث مزن الحزن ، لعلها تبكى على قاع الإفلاس ، ومسكن المسكنة ، فتدب المياه فى عروق أغصان اللب ، فتهتز العيدان فى ربيع الاستدراك ، فما ارتوى زرع توبة قط إلا من جداول الحَدَق .

لعل أيامنا التى سلفت تعود بيضا كما عهدنا

يا هذا ، لاضرر يلحقنا من معاصيك ، إنما المراد صيانتك ، ولا تنفع ينالنا من طاعتك ، إنما المقصود ربحك . فتدبر أمرك .

ياقوم من غيرتنا عليكم حرمنا الفواحش ، كم ندعوك فتأبى إلا الهجر ، فلا للعهد رعيت ، ولا بالتقويم استويت .

يا من يعز علينا أن نفارقهم وجداننا كل شيء بعدكم عدم
وبيننا لو عرفتم ذاك معرفة إن المعارف فى أهل النهى ذمم

## الفصل السادس عشر

إخوانى ، من رآى تصرف الدهر انتبه ، أمافى الغير عبر ، مهد الطفل عنوان اللحد ، ريح الأجل يقشع غيم الأمل الشبيبة باكورة الحياة ، والشيب رداء الردى ، لو أن أيام الشباب تباع لبذلنا فيها أنفس الأنفس .

متى أسفر صبح المشيب هوى نجم الهوى ، إذا قرع المرء باب الكهولة فقد استأذن على البلى من عرف الستين أنكر نفسه ، من بلغ السبعين اختلفت إليه رسل المنية .

يا من قد انطوى برد شبابه ، وجُبِيت خلع خَلعه ، وبلغت سفينه عمره ساحل سفره ، قف على ثنية الوداع فلم يبق إلا نظرة تغتنم .

قطع المشيب سلك العمر فالتقط باقى الخرز ، ورب شقاء فى الأمل فاسد العمل ، عمرك يذوب ذوبان الثلج ، وتوانيك أبرد منه .

ولم يبق من أيام جمع إلى منى إلى موقف التجمير غير أمانى

أنت تحب الإقامة ، ولكن ماتحتمل المفازة ، فى نفس الجمل غير مافى نفس السائق ، ولو ترك القطار لنا .

العاقل من استعد لما يجوز وقوعه ، فكيف يغفل عما لابد من كونه ، زمان التزود قصير ما يحتمل التسويف .

واعجبا لعمر قد ملىء بالزاد خيف عليه العوز ، فكيف إذا تناهبته أيدى البطالة ، ياعجبا لمن ينشد ضالة وقد أضل نفسه ، ولمن يشفق أن ينفق دراهمه وقد ضيع عمره .

كان ثلاج لامعاش له إلا بيع الثلج ، فبقى عنده منه شىء لم ينفق ، فجعل يقول فى مناداته : ارحموا من يذوب رأس ماله .

ففقرك من الخير مشوب بالكسل ، ومتى كان الفقير كسلان فلا وجه للغنى ، ولو كانت لك أنفة من التوانى لخرجت من ربقة الذل ، بعت قيام الليل بفضل لقمة ، شربت كأس النعاس ففاتتك رفقة تتجافى جنوبهم ، امتلأت طعاما فإذا غريم الفراش يتقاضـــاك دين النوم ، فضرب على أذنك لا فى موافقة أهل الكهف ، تناولت خمرة الرقاد ، فوقع بك صاحب الشرطة ، فعمل فى حقك : نم وقم ، فجعل حدك الحبس عن قيام الليل ، فخرج عن توقيع قصتك وقت الفجر « رضوا بأن يكونوا مع الخوالف » .

والله لو بعت لحظة من خلوة بنا بتعمير نوح فى ملك قارون لغبنت . لا ، بل بما فى الجنات كلها ماربحت ، ومن ذاق عرف .

## الفصل السابع عشر

خلقت الملائكة من نور لاظلمة فيه ، وخلقت الشياطين من ظلمة لانور فيها ، وركب البشر من الضدين ، فظلام نفسه مقترن بنور عقله ، بينهما حاجز لطيف لايعرف إلا بالمجاهدة كما أن بين الشمس والظل خطا لطيفا لايراه إلا المهندسون .

والملك يسبح لأنه صاف ، والشيطان يعصى لأنه كدر ، وإنما العجب تقوى من تقوى فى حقه الأضداد .

الآدمى عقل وهوى ، غير أن بين الهدى والهوى برزخا من التوفيق ،

ولولا لطائف الإعانة قلع سد التماسك ، ولم تطق البشرية المدافعة ، لولا لاحقة « لنهدينهم سبلنا » ، لسابقة « سبقت » لهم « منا الحسنى » .

فاصبر أيها المحارب ، ولا تخف من كمين « واستفزز » ، مادام لك مدد « يثبت الله الذين آمنوا » .

هبت عواصف التكليف بالبشرى ، فلم يتماسك هاروت وماروت ، فرمى بها رمى عاد ، وقال موافق « أتجعل فيها » : إن للحرب رجالا خلقوا .

كانت الملائكة تدعو على العصاة قبل هاروت وماروت ، فلما جرت قصتهم كانوا يستغفرون لمن فى الأرض كما كان داود يقول : لاتغفر للخاطئين. فلما زل عرف .

فعذرتهم فعرفت ذنبى إننى عيرتهم فلقيت منهم مالقوا

عب بحر الأمانة ، فوقفت الملائكة على الساحل ، ونهضت عزيمة الآدمى لسلوك سبيل الخطر ، والمحب لايرى العواقب ، ولسكران الوجد إقدام .

يغلبنى شوقى فأطوى السرى ولم يزل ذو الشوق مغلوبا

أين مجاهدة الآدمى من تعبد الملائكة ؟ حال الآدمى أعجب ! ! تسبيح الملائكة يدور على ألسنتهم بالطبع ، وتعبدهم لاعن تعب ، ورد شجرهم خال عن شوك الشك ، الغالب على أوصافهم أنوثة السلامة ، لاذكورة الجهاد .

شبح تسبيحهم عقود مانظمها التكليف ، ثمرات زرعهم نشأت لاعن كلف ، سقاها سيح العصمة ، فكثر فى زكاة تعبدهم قدر الواجب « ويستغفرون لمن فى الأرض » .

ظنت الملائكة أن يد العصمة أصنع فى نظم عقد التسبيح ، ونسوا أن يبس الأشجار فى أيام الشتاء سبب الزهر فى أيام الربيع .

# الفصل السابع عشر

العزائم فى قلوب أربابها كالنار تشتعل ، إنها لتستعمل البدن ولا تحس بالتعب .

يغلبنى شوقى فأحوى السرى

للعزائم رجال ليسوا فى ثيابكم ، وطنوا النفوس على الموت ، فحصلت الحياة ، لو رأيت ذا الغرائم قد برز فى براز الجد .

يجد عنانا لم تخنه الشكائم

فلما عاين هؤلاء مايابن له قلب الجبان أبى عوده المعجوم إلا صلابة . فهو فى صف الجهاد أثبت قلبا من القطب فى الفلك . إن جن الليل لم تتصافح أجفانه ، لاينتظر بقيامة وقت السحر . كيف وعلة الصادى تأبى له انتظار الورد .

فلما أن مضى إلا قليل إذا به على قُنَّة المجد المؤثل جالس

من لم يقم فى طلاب المجد بالجد لم ينم فى ظلال الشرف :

تقول سليمى لو أقمت بأرضنا ولم ندر أنى للمقام أطوف

كان الصحابة هاجروا سرا ، وعمر خرج ظاهرا وقال للمشركين : هاأنذا أخرج للهجرة ، فمن أراد لقائى فليقنى فى بطن الوادى .

فليت رجالا فيك قد نذروا دمى

مذ عزم عمر على طلاق الهوى أحدّ أهله عن زينه الدنيا ، فكان بيته وهو أمير ، كبيت فقير من المسلمين ، تجمعت فى فؤاده ، هم ملء قواد الزمان ، إحداها كان رضى الله عنه يقول : لئن عشت لأدعن أرامل العراق لايحتجن إلى أحد بعدى .

ولما ولى عمر بن عبد العزيز سمع البكاء من داره ، فقيل لهم : ما بالهم فقيل : إنه خير النساء والجوارى فقال : من شاءت فلتقم ، ومن شاءت فلتذهب ، فإنه قد جاء أمر شغلنى عنكن .

أقسم بالفقه لاشبيه له ظبى رنا أو غصن تأودا

وكلما قيل له : تهن فقد حزت المنى ، قال : وهل جزت المدى .

واعجبا ! ! أين العزائم ؟ إن العجز لشريك الحرمان ، وإيثار الراحة يورث التعب .

والهون فى ظل الهوينا كامن وجلالة الأخطار فى الأخطار(١)

إغسل وجه الجد من غبار الكسل ، وأنفق كيس الصبر فى طريق الفضائل إن كانت عزيمة ، فليس فى لغة العزم ربما وعسى .

ليس عزما مامرض المرء فيه ليس هما ماعاق عنه الظلام

## الفصل التاسع عشر

يانائما فى ظلمة ظلمه ، ياموغلا فى مفازه تيهه ، ياباحثا عن مدينة حتفه ، ياحافرا زبية هلاكه(٢) ، يامعمقا مهواة مصرعه . بئس مااخترت لأحب الأنفس إليك .

ويحك ! تلمّح الجادة ، فأنت على ضلال عين ، أملك ترى المحبوب ، وتعمى عن المكاره ، إذا كان عمرك فى إدبار والموت فى إقبال ، فما أسرع الملتقى .

كيف يبقى على حالته من يعمل الدهر فى إحالته ، كيف تطيب الدنيا لمن

---

(١) الهون : الذل . الأخطار الأولى : الأقدار ، والثانية : المهالك .
(٢) يعنى حفرة هلاكه .

لايأمن الموت ساعة ، ولا يتم له الزمان سرور يوم .

قد قرع الدهر بوعظه ، فما سمعتم « لينذر من كان حيا » ، صاح ديك الإيقاظ فى سحر ليل العبر فما تيقظت فتنبه إذا نعق غراب البين .

ومشقت القربات بنفق عمره حيران لاظفر ولا إخفاف

يامؤثرا مايبقى على مايبقى هذا رأى طبعك ، هلا استشرت عقلك لتسمع أنصح النصائح « من كان دليلة البوم ، كان مأواه الخراب » .

ويحك ! شهوات الدنيا أحلام يزخرفها نوم الغفلة ، ونظر الجاهل لاينفذ سوى الهوى ، ولا يخرق حجاب الغفلة ، فأما ذو الفهم فيرى ماوراء الستر .

لاحت الشهوات لأعين الطباع ، فغض عنها الذين يؤمنون بالغيب ، فوقع أكثر الخلق فى التيه ، والقوم على هدى من ربهم . رحل الصالحون وفى الغافلين تثبط .

تالله لقد عرفوا شرف المقصد ، ولكن بعدت عليه الشقة . والأسفا لو عرفوا عمن انقطعوا لقطعوا . يصبحون فى جمع الحطام ، ويبيتون على فرش الحرام ، وينفقون فى الهوى بضائع الأيام . « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى » .

سلمت إليهم أموال الأعمار ، فأنفقوها فى ديار الإدبار « فما ربحت تجارتهم » هذا والعبر تصيح « فهل ينظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم » غير أن المسامع قد تمكها الصمم .

ويحهم ! ! هلا تدبروا فساد رأى العمل « وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم » إن فى المعاصى لمقيم عبرة ، وليس المؤمن عنده ثقة ، ولا العمر إذا مر يعود ، وعوارى الليالى فى ضمان الارتجاع والدهر ، يسير بالمقيم ، اشتر نفسك والسوق قائمة ، والثمن موجود ، ولا تسمعن حديث الشريف .

فما لعذر من حادث يكفيل

# الفصل الحادى والعشرون

لما عرف الصالحون قدر الحياة أماتوا فيها الهوى ، فعاشوا وانتبهوا ، وألتقوا بأكف الجد ما انتثرته أيدى البطالين ، ثم عاملوا القيامة فاحتقروا الأعمـــال .

أماتوا قلوبهم بالمخافة فاشتاقت إليهم الجنان ، فالجذع يحن إلى الرسول ، والجنة تشتاق إلى على .

كم شخص أشخص الشوق يكاد لصيانته للمواثيق يقبله الحجر قبل تقبيله ، كلما قضى الناسك المناسك ثم رجع ، بقى سهم الشوق فى قلبه من منى ، ظواهرهم تراقب حدود الشريعة ، وقلوبهم وفق محبة الخالق .

وقف الهوى بى حيث أنت فليس لى متقدم عنـه ولا متأخر

أنفوا من مزاحمة الخلق فى أسواق الهوى ، وقوى شوقهم فلم يحتملوا خضراء الدنيا ، فخرجوا إلى فضاء العراء صحراء التقوى ، وضربوا مخيم الجد فى ساحة المجد ، وتخيروا شواطىء أنهار الصدق ، فشرعوا فيها شارع البكاء ، وانفردوا بقلقهم فساعدهم ريم الفلا ، وترنمت بلابل بلبالهم فى ظلال الدجى فلو رأيت الواحد منهم يتقلب على جمر الغضا .

يا محصورا فى حبس الجهل والمنى ، إن خرجت من سجنك لترويح شخصك من غم البلا عرج بذلك الوادى ، تلمح القوم الوجود ففهموا الرحل قبل الرحيل ، وشمروا فى سواء السبيل ، فالناس يخوضون فى وحل الاكتساب ، وهم فى ظلى القناعة .

مرضى الهوى يستغيثون فى مارستان البلاء ، وهم فى قصور السلامة ، وكسالى البطالة على فراش التدانى وهم فى جد السباق ، يرجون تجارة لن تبور ، يجرون خيل العزائم فى ميدان المبادرة ، ويضربون كرة الدنيا

بصولجان الأنفة ، فما نصت الأيام حتى عبروا القنطرة ، وقد سلموا مما ضر .

تمكن غناهم فى قلوبهم ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ماضرهم ماغرهم . أعقبهم ماسرهم ، هان عليهم طول السفر لعلمهم بشرف المقصد ، وحلت مرارات البلاء حبا لتعجيل السلامة ، فيا بشراهم يوم « هذا يومكم الذى كنتم توعدون » .

شقيت فى الهوى زمنا فلما تلاقينا كأنا ماشقينا
سخطنا عندما جنت الليالى فما زالت نباحتى رضينا
سعدنا بالوصال فكم سقينا بكاسات النعيم وكم سقينا
فمن لم يحى بعد الموت يوما فإنا بعد مامتاحينيا

## الفصل الثانى والعشرون

سبحان من يرسل رياح المواعظ فتثمر من قلوب المتيقظين غيم الغم على ماسلف ، متشوقة إلى بلد الطبع المنحرق برق الوعيد ، وبرق الخشية ، فترقأ دموع الأحزان من قعر القلب إلى أوج الرأس ، فتسيل من ميازيب الشؤون على نطوع الوجنات ، فإذا عشب الشر يفتر فرحا بالإجابة :

سلى عنه تخبر باليقين دموعه فلا تسألى عن قلبه أين يمما
وجمعة عمرو مثل صرعة مالك ويقبح بى ألا أموت متيما

إذا أرعدت سماء التخويف انخلع لها قلب المذنب ، فانفتحت صحائف أصداف البحر لتلقى النسيان فقطرت فيها قطرات عزائم عقدها لؤلؤ وبيع العرفان .

التوبة الصادقة كيمياء السعادة ، إذا وضعت منها حبة صافية على جبال من أكدار الذنوب دكته هيبة التجلى قبل المباشرة ، وصار كلا لأحداق البصائر .

رب ذنب أدخل صاحبه الجنة، إذا صدق التائب قلبت الأمارة مطمئنة .

لما أخذ الخليل فى طريق الصبر ، فتبعه الذبيح ، واستسلما ألقى على السكين السكون . إذا جالس التائب رفيق الفكر أعاد عليه حديث الزلل ، وندم على ركوب الخطل .

فرأيت العين قد انفجرت فجرت كالسيل مدامعها
وسمعت لسان الحال أسا نيدى ويعد وقائعها
ويقول وحق تواصلكم لاعدت أزور مواضعها

وعاينت عمال اليقظة قد بث أعمال الجد فى رستاق القلب للعمارة. فيا أيها المذنب إن أشكل عليك أمرك ، فلتتضح لك دمعة .

إذا أعجمت أطلال هند على البلا فدمعك فى بث الغرام فصيح

يامطلقا وصالنا راجع ، ياحالفا على هجرنا كفر ، إنما أبعدنا إبليس لأنه لم يسجد لأبيك ، فواعجبا كيف صالحته وهجرتنا ؟ ويحك ! لك عندنا من القدر مالا تعرفه ليلة القدر .

## الفصل الثالث والعشرون

حبال الدنيا خيال يغر الغر ، انقطعت منذ اتصلت بعزة فرعون الهوى فإذا ألقى موسى الزهد عصا العزم ، إذا هى تلقف .

الدنيا سوق فيها ضجيج الشهوات ، فإذا اشتغلت بها فكيف تسمع المواعظ ، نادى بالصالحين أمير نمل التوفيق عند مر سليمان البلاء : كفوا أكف الطباح عن تناول لقم الشهوات ، وادخلوا مساكن الجمعة عن تخليط الإرادات . لايحطمنكم سليمان الهوى وجنود الغفلات ، سبعة يظلهم الله يوم لاظل إلا ظله، منهم رجل دعته امرأة ذات حسن وجمال فقال: إنى أخاف الله.

اسمع يامن أجاب عجوزا شوهاء ، لاح للأولياء حب المشتهى ، فدوا أيدى التناول فبان للبصائر خيط الفخ ، فصاروا بأجنحة الحذر ، وصوبوا إلى الرعيل الثانى « ياليت قومى يعلمون » .

ماأصعب السباحة فى غدير التمساح ، ماأشق السفر فى أرض مسبعة (١) .

أى مقيد الوجود فى فناء الفناء ، قامت قيامة الملامة ، وماتسمع ، لقد نصحك صوت النصيح ولكن صلخ الآذان مانع .

كم لاحت شهوة تردى ، ولكن يعقوب المواعظ يعضد أنامل التحذير يوم البرهان وأنت لاتلتفت . ويحك : احضر الطبع الجاهل مجلس التفكر فقد فهم حبيب العجمى وعظ الحسن .

يا مقيما على الهوى وليس بمقيم ، يامبذرا فى بضاعة العمر متى يؤنس منك رشد ، ياأكمه البصيرة لاحيلة فيك لحيلة ، أى طويل الرقاد ولا نوم أهل الكهف ، مالك تنفق عمرك مجازفة ومالك بالميزان .

قدر أن الموت لايتفق بغتة ، أتطمع فى الخلود ، أليس المرض يبغت ؟ ويحك ! قد بقى القليل ، فاستدرك ذبالة السراج .

أما يزعجك صوت الحادى ؟ أما يؤلمك صوت السائق ؟

لهفى على غفلات أيام مضت عنى وماهفى براجع مامضى

ياداثرة الشقاء أين أولك ؟ ياأرض التيه متى آخرك ، ياأيوب البلاء إلى كم تقيم على الكناسة .

خليلى ماأرجو من العيش بعدما أرى حاجتى تشرى ولايشترى ليا

ياحصرا عن الوصل لافى سفر الحج ، ضالا عن الهوى بالهوى ، يامنقطعا فى سبيل السلوك عن جملة الوفد إذا احتبست فى مرض الهوى يموت الطرد

---

(١) أى كثيرة السباع .

فتحامل إلى خيمة أهل الوصل ، وأشهد على وصيتك ، من المقبولين ذوى عدل ، وناد بانكسار الذل على حسرة الفوت .

إذا ما وصلتم سالمين فسلموا على خيرة ذرو المعالى تسنموا

## الفصل الرابع والعشرون

أعظم المصائب شماتة الأعداء ، وعداوة الشيطان قديمة من يوم « أبى واستكبر » ، وحسد إبليس من يوم « أنجعل » ، وفرح النظراء بك أعظم الكل ، وماانتقم منك حاسد بأعظم من تفريطك ولا انتقمت منه بأعظم من تقويمك ، فالحظ كيف أفت نفسك الحظ ، وأنلت الحاسد المراد .

مابلغ الأعداء من جاهل مابلغ الجاهل من نفسه

ويحك ! ! اصبر عن الهوى تحمد عواقب السلامة .

فإن المر حين يسر حلو وإن الحلو حين يضر مر
فخذ مرا تصادف عنه حلوا ولا تعدل إلى حلو يضر

إياك والذنوب ، فلو لم يكن فيها إلا كراهة اللقاء كفى عقوبة ، أطيب الأشياء عند يعقوب رؤية يوسف ، وأصعبها عند إخوته لقاؤه .

إذا كان القلب تقياضج لحدوث المعصية ، وإذا تكدر مرت عليه ولم يبال ، كانت المعصية عنده غريبة فاستوحسن ، فلما صار بليد الطبع لم ينفر .

لابس الثوب الأسود لايجزع من وقوع الخبر عليه ، ياجرحى الذنوب قدعرفتم المراتع ، إن لم تقدروا على أجر نائحة فنكسوا رءوس الندم ، فما يخفى صاحب المصيبه ، فإن فاتكم عز معاذ ، فلا تعجزوا عن ذل الثلاثة الذين خلفوا .

خذوا دليل العزم إن لم تعرفوا سبل الوصول ، فلعل حيرة الطلب توقفك على ماء مدين ، سيروا فى بوادى الرجاء ، وأنيخوا بوادى الذل فى كسر الإنكسار ، وأصيخوا بأسماع اليقظة ، لعل حداء الواصلين يحرك إطراب

القلوب ، لا ، بل ربما عوق السائرون لوصول المنقطع ، فكم قد صار فى الرعيل الأول من كان فى الساقة [١] .

لاتملوا الوقوف ولو طردتم ، ولاتقطعوا الاعتذار وإن رددتم، فإن فتح الواصلين دونكم ، فاهجموا هجوم الكذابين ، ونكسوا رءوس الفقر، وابسطوا أكف ، وتصدق علينا ، لعل هاتف القبول يقول : « لاتثريب عليكم اليوم » .

وإذا جئتم ثنيات اللوى ... فلجوا ربع الحمى فى خطرى
وصفوا شوقى إلى سكانه ... واذكروا ماعندكم من خبرى
وحنينى نحـــو أيام مضت ... بالحمى لم أقض منها وطرى
أتمنـــاكم إذا هب الصبا ... ضاع عمرى فى المنا واعمرى

## الفصل الخامس والعشرون

الجنة ترضى منك بالزهد والنار تندفع عنك بترك الذنب ، والمحبة ماتقبل الرشا . أيها الطالب اخرج إلى عنك، قلب ضعيف لايفى بى وبك ، إما أنت وإما أنا ، افقد نفسك تجدنى .

لما نسى الخليل عليه السلام نفسه قويت صولة يوم « أما إليك فلا » [٢] ماسلك طريقا أطيب من الفلاة التى دخلها عند انفصاله عن المنجنيق .. رباتسق فيها أقدام الرضا على أرض الشوق ، شابهت ليلة « فزجنى فى النور » فقال : « هاأنت وربك » .

زرناك ولو أن الفلا بسطت ... نشر الفلا بيننا حمرا لزرناك

لاحت أوصاف الصانع فى جمال الكمال ، فأشرق فى قلوب العارفين حبه ، فصاح لسان الحال :

---

(١) أى كم سبق المتأخر حتى صار فى المقدمة .

(٢) وذلك حين جاءه جبريل وقد أعدت له النار فقال له : أمالك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا .

بدم المحب يباع وصلهم

فأجاب العزم .

فما غلت نظرة منكم بسفك دم

قلبهم الحب فى أرض قفر الفقر ، على أكف البلاء ، بقطع أوداج الإعراض بسكين المسكنة ، والمحبوب يقول : «أيصبرون» ؟ والأرواح تجيب : عنك لا .

شغلت نفسى وقلبى فى محبتكم لاخلف الله روحى عن مودتكم
ها قد غضبت على نفسى لأجلكم حتى جفوت حياتى بعد جفوتكم
إذا تلهب جمر الشوق فى كبدى أطفأة ماء التلاقى يوم رؤيتكم

غاب القوم عن وجودهم شغلا بموجدهم ، طرق طارق باب أبى يزيد البسطامى ، فقال : أبو يزيد ها هنا ؟ فقال له أبو يزيد : أبو يزيد يطلب أبا يزيد فما يراه .

لايعرف رموز الأحباب إلا مجانين ، سل عن حال سلمى وعن حال المجنون . بلغت بهم المحبة إلى استحلاء الآلام ، لعلمهم أنها مراد الحبيب .

وكل مايفعل المحبوب محبوب

لما طعن ابن ملجان قال : فزت ورب الكعبة ، ضُنى سويد بن منجبة على فراشه فكان يقول : والله ماأحب أن نقصنى منه قلامة ظفر .

تعجبوا من تمنى القلب مؤلمة وما دروا أنه أحلى من العسل

المحبوب محبوب وإن عذب ، استقرت حبال المحبة فى أرض القلوب فلم تزعزعها عواصف البلاء ، أمر الحجاج بصلب ماهان العابد فوق خشبة ، فصلب وهو يسبح ويعقد بيده حتى بلغ تسعا وعشرين ، فبقى شهر ، ويده على ذلك العقد .

لتحشرن عظامى بعدما بليت يوم الحساب وفيها حبكم علق

إذا وقعت المعرفة فى قلب سهل البلاء ، فإن قارنتها المحبة فلا أثر للبلاء ، لأن المحب يستلذ إذن كل أذى .

عذابه فيك عذب وبعده فيك قرب
وأنت عندى كنفسى بل أنت منها أحب
حسبى من الخلق أنى لما تحب محب

مروا على مجذوم قد قطعه الجذام فقالوا له : لو تداويت ؟ فقال : لو قطعنى إربا ما ازددت إلا حبا .

واعجبا ما للعذول وما لهم قد رضى المقتول كل الرضا

## الفصل السادس والعشرون

العمل والعلم توأمان ، أيهما علو الهمة . أيها الشاب ، جوهر نفسك بدراسة العلم ، وحلها بحليه العمل ، فإن قبلت نصحى وصلت لصدر سرير المجد .

من لم يعمل بعلمه لم يزد مامعه ، حامل المسك إذا كان مزكوما لاحظ له فيما حمل ، قلب العالم العامل يقذف إلى ساحل اللفظ جواهر النطق ، فتلتقطها أكف الفهم عن الله عزوجل . إن العالم لخاتم خنصر الدهر . إن العلماء غرباء فى الدنيا لكثرة الجهال بينهم .

أيها المعلم ، تثبت على المبتدى وقدر فى السرد ، فللعالم رسوخ ، وللمتعلم قلق .

ويا أيها الطالب ، تواضع فى الطلب ، فإن التراب لما ذل لأخمص القدم صار طهورا للوجه . ولا تيأس من مداومة الخير أن يقوى ضعفك ، فالرمل مع الزمان يستحجر .

صابر ليل البلاء ، فبعين الصبر ترى صبح فجر الآخرة ، مايرى منصب بلا نصب ، ألا ترى إلى الشوك فى جوار الورد ؟ .

أيها المبتدىء تلطف بنفسك ، فرازة الجهل صعبة ، تنقل من درج الرخص إلى سلم العزائم ، ولاتيأس من نيل المراد .

فأول الغيث قطر ثم ينسكب

أقدم على حضور المواعظ ، فإن الطفل كل ساعة يحتاج إلى الرضاع ، فإذا صار رجلا صبر عن الطعام . على أن الماء إذا كثر صدمه للحجر أثر .

يا عطاش الهوى فى تيه الغفلة ، انحازوا إلى جادة العلم ، فكم فى فيافى التعليم من عين تعين على قطع البادية .

ياجيرة الحى هبوا من رقادكم على حديث له فى سمعكم شغل

طريق الفضائل مشحونة بالبلاء ليرجع مخنث العزم . إذا نزلت بالحازم بلية فوجد مذاقها مرا أدار الفكر فى حد العواقب،فنسخ وسخ مارسخ[1] .

العاقل صابر الشدائد لعلمه بقرب الفرج ، والجاهل على الضد من ذلك. كما أن النار إذا اشتعلت من حطب الزيتون لم تدخن ، بخلاف السوسن ، لأن الطبع طفل والعقل بالغ .

وعاقبة الصبر الجميل جميلة فلا تسأمن الصبر واصبر لعلها

## الفصل السابع والعشرون

إخوانى ، الدنيا ملتقى الوداع ، فاصبروا لما مر فيها ، فكأن قد مر[2] ، أحذروا شرها ، فقد سحرت سحرة بابل ، مكارهها فى غضون المحبوب وأعقابه ، ماأمسى أحد منها فى جناح أمن إلا أصبح على قوادم خوف .

أفق قد أفاق الوامقون وقد أنى لدائك أن يلقى طبيبا يلائمه

أفنيت عمرك فى طلبها،وماحصل بيدك إلاماحصل بيد المجنون من ليلى .

صحاكل عذرى الغرام منالهوى وأنت على حكم الصبابة نازل

---

(١) أى زال عذر عدم الرسوخ أو الذي رسخ فى النفس من أثر البلاء .
(٢) مر الأولى : من المرارة ومر الثانية : زال وذهب .

تصحو فى المجلس من خمار الدنيا ساعة ، ثم تغلبك كما يغلب الشارب حميا الكأس ، وليس فى برق السلاح ملتمع لمن يخوض فى الظلمة .

كم عطف عطفك بلجام الفطنة إلى عطفة اليقظة ، فإذا انقضى المجلس عاد الطبع ثانى عطفه .

وتأبى الطباع على الناقل

جسمك عندنا ، وقلبك غائب عنا ، عزمك فى طلب الدنيا وتشتهى بيل الآخرة .

هواها وراها والسرى عن أمامها فهن صحيحات النواظر حُوَّل

الدنيا مفازة لاتصلح للتوطن ، إن البيدر إذا صفا حمل إلى دار الإقامة ، واعجبا لمن أطال الوقوف على القنطرة حتى نسى اسم البلد .

ويحك ، كسب الدنيا يزيد فى الحساب عليها ، ساعة الحمل لعب ، والجد فى الولادة ، نثار السكر فى مبدأ العقل كمرارة الوضع ، الدنيا كامرأة فاجرة لاتثبت مع زوج ، فلذلك عيب طلاقها .

ميزت بين جمالها وكمالها فإذا المحبة بالخيانة لاتفى
حلفت لنا ألا تخون عهودنا فكأنها حلفت لنا ألاتفى

الدنيا قنطرة على بحر الهلاك ، فخذ بالحزم فى تعلم السباحة قبل الجواز ، فما تأمن من عثور قدم ، ولا عاصف قاصف .

أحذرها آمن ماتكون ، وانتظر حزنها أسرّ ماتكون .

إذا رأيت أنياب الليث بارزة فلا تظنن أن الليث يبتسم

الدنيا دار ابتلاء تشبه قصر مصر ، استبق الكتاب فيها يوسف العزم ، وزليخا الهوى ، وقميص الأعمال يعرض على يعقوب الشفاعة ، فمن رآى قميصه قد من قبل قال : سحقا . ومن رآى قميصه قد من دبر قال : ادخرت شفاعتى .

يامن ألقاه فى جب الحب سنارة القدر ، إنه يبعث فى كل ليلة وارد « هل من سائل » ، فكن متيقظا للوارد إذا أدلى دلو التخليص ، وقم على قدم « تتجافى » ، وامدد أنامل « يدعون ربهم » ، وألق ما فى عينيك لتعجل ، ولا تتشبث بأرجاء أبناء الدنيا ، فإنها رمل تنهار عليك .

فإذا تخلصت بعزائم الإنابة عن الطريق المسبعة ، وسرت فى مصباح اليقين خلف دليل الهدى ، سمعت بشير حادى الركائب يترنم بلسان الهنا ، والراحة من العنا :

عند الصباح يحمد القوم السرى

## الفصل الثامن والعشرون

صاح بالصحابة رضى الله عنهم واعظ « اقترب للناس حسابهم » ، ففزعت للخوف قلوب ، فجرت للحزن عيون ، فسالت أودية بقدرها .

رمى الصديق ماله حتى يقربه إلى المذكر ، وتخلل بالعبا ، وقال عمر : ليتنى كنت نبتة . وقال عثمان : إذا مت لا أبعث ، وصاح على بالدنيا : طلقتك ثلاثا لا رجعة لى فيك ، وقد كانت تكفى واحدة ، لكنه بت لئلا يتصور للهوى جواز المراجعة ، وطبعه الكريم يأنف من المحلل .

وقال أبو الدرداء : ليتنى كنت شجرة تعضد ، وقال عمران بن حصين : ليتنى كنت رمادا ، أنت تسمع القرآن لكن لا كما سمعوه .

لو يسمعون كما سمعت كلامها خر والعزة ركعا وسجودا

إقدام الصادقين على أقدام التعبد ، قد التقت الصفوف ، يعتمدون على سنابك الخوف ، فإذا أثر النصب أوجب براز الرجاء .

اختلف القوم عند الموت ، فبعضهم صابر الخوف حتى قضى نحبه كعمر

كان يقول عند الرحيل : الويل لعمر إن لم يغفر له . ومنهم من غلب عليه الرجاء كبلال ، كانت زوجته تقول عند موته : واحرباه ، وهو يصيح واطرباه ، غدا ألقى الأحبة ، محمدا وحزبه .. علم أن الإمام لاينسى المؤذن فخرج كرب الموت براحة الرجاء .

بشرها دليلها وقالا غدا ترين الطلح والجبالا

قال سليمان التيمى لولده عند الموت : اقرأ على أحاديث الرخص ، لألقى الله عزوجل وأناحسن الظن به .

إلى متى تتعب الرواحل ولابد من مناخ .

رفقا بها أيها الزاجر قد لاح سلع وبدا حاجر
وخلها تسحب أرسانها على الربا لاراعها ذاعر
وأذكر أحاديث ليال منى لاعدم المذكور والذاكر

ياخنث العزم ، أين أنت والطريق طريق نصب فيه آدم، وناح لأجله نوح ، ورمى فى النار من شأنه الخليل ، وأرعج للذبح إسحاق ، وبيع يوسف بدراهم ، ونشر بالمناشير يحيى، وصبر للبلاء أيوب، وزاد على الحد بكاء داود، وتنغص فى الملك عيش سليمان ، وتحير برد « لن » موسى ، وهام مع الوحش عيسى ، وعالج الفقر محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

فيادارهم بالحزن إن مزارهم قريب ولكن دون ذلك أهوال

أول قدم فى الطريق بذل الروح ، هذه الجادة فأين السالك ، هذا قميص يوسف فأين يعقوب، هذا طور سيناء فأين موسى ياجنيد احضر، ياشبلى اسمع .

بدم المحب ينال وصلهم فمن الدى يتباع بالسعر

# الفصل التاسع والعشرون

حلل الوجود مكونة بالأصباغ على عرائس الموجودات ، لتروا أعين العبادة .

واعجبا : لو دخلت بيت ملك لتعجبت من نقوشه ، فارفع بصر العبرة ، واخفض عين البصيرة ، فهل بيته أحسن من هذا الكون ؟

أخرج من ديار إدبارك ، واعبر فى معبر اعتبارك . قف فى يفاع قاع ، ترى كيف تمت خضرة خضرته بأسرار الخالق ، إذا تمت تلمح أصناف النبات فى ثياب النبات قد برز فى عيد الربيع يميس طربا . الخزامى مختلف الألوان . فى الغصن الواحد صاغ صانع القدرة مايرشد الغافلين إليه ولكنهم مشغولون فى مأكل الهوى . اسمع الورق على عيدان الورق ، لعل تقاطع السجوع توجب رجوع المقاطع .

ولقد تشكو فما أفهمها ولقد أشكو فما تفهمنى
غير أنى بالجوى أعرفها وهى أيضا بالجوى تعرفنى

وإعجبا ! كيف تتفكر فى الغير وتنسى نفسك ، تأمل بعين الفكر نطفه مغموسة فى دم الحيض ، ونقاش القدرة يشق سمعها وبصرها من غير مساس ، بينا هى ترفل فى ثوب نطفة ، اكتست صفة مصنغة ، ثم اقتسمت إلى عظم ولحم ، فاستترت من يد الأذى بوقاية الجلد ، ثم خرجت فى صيغة طفل ، ثم ارتقت إلى مراقى الصبا ، فتدرجت إلى نطق المنطق ، وتشبثت بذيل الفهم ، فكم من صوت بين أرجل التنقل ، من تحريك خلاخل العير فى حلاحل رنت عنت ألسن الهدى فى مغانى العانى . وكيف يسمع أطروش الشقوة .

هيهات ، ليس للمزكوم من الورد نصيب ، ولا للمسجون فى العيد حظ فإن كنت تعرف هذه العجائب ولا تتعجب منها فتعجب من عدم تعجبك . . كيف أعدمت التدبير مع آلات الفهم ، وأعميت بصيرتك بعد رؤية الحق ، فإنه أعجب أفعال القدرة ، وأضله الله على علم . .

# الفصل الثلاثون

لطف الحق بعبده قديم . لما ظهر الولد أجرى له عين اللبن ، يغريل قطرها عيون الثدى ، وبذر فى قلب الوالدين حَب الحَب ، حتى جـــدا فى اللطف جدا فلما عرف المنعم أنفق النعم فى المعاصى .

وكم ليلة قد بات عار من التقى يغطيه ستر الحلم بالتيه درى

ولما بلغ أشده استوى على متن ظهر المبارزة : لمن ؟ مع من ؟ إلى أين ؟ من أنت ؟ من أنا ؟

لحا الله من لاينفع الود عنده

ياهذا ، لنا بك لطف يزيد على كل لطف إذا تبت من الذنب أنسينا الملك ما كتب . وإذا حاسبناك سترناك ، لئلا يرى الخلق اصفرار لونك بالخجل

يا طاهر الفطرة لاتدنس بأنجاس الزلل ، شمر أذيال التقوى عن مزبلة الهوى ، واحذر رشاش الشهوة أن ينتخض على ثوب النظافة . وحمل التكليف يحتاج إلى شدة التحرز . فانظر بين يديك « فإن زللتم من بعد ماجاءتكم البينات » . فعيون العيون تغسل أدران القلوب .

كان أول أمرك سليما يوم « وأشهدهم على أنفسهم » فأصلح آخر أمرك تسامح فى الوسط . ياطويل الغيبة عن وطن « ألست » أين حنين شوقك .

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول

قف على الدرب وانشد ظغائن الغادين .

ألا خبرونا أين زُمّت ركابكم وأين استقرت هوجكم ومطاكم

أنين المذنبين أحب إلينا من زجل المسبحين . المطيع يدل بالعمل ، والمذنب ذليل بالزلل . المخطىء اوتار الوجل ، وينشد بتطريب الخجل .

من معبد أيام ذى الأثل أوما  قل منها ديثنا على وهرضا
سامحا بالقليل من أرض نجد  ربما أقنع القليل وأرضى

ياعجبا ، استقرض الملك قطرة ن الدمع وقد خلق سبعة أبحر . له ملك السموات والأرض وقد بعث رسالة «من ذا الذى يقرض» ، الكبرياء رداؤه وهو يقول لعبده: «جعت فلم تطعمنى» قطع أعناق الألسن أن تعترض بحسام «لايسأل» ثم أقبل بإنعام «هل من سائل» ، مايسعه مسكن ، ويسعه قلب من تمسكن ، غاب عن الأبصار ، وبدا للبصائر .

واعجبا !! يتحبب إليك وهو عنك غنى ، وتتمقت إليه وأنت له فقير ، إن تأخرت قربك ، وإن توانيت عاتبك ، ما آثر عليك من المخلوقات شيئا ، وأنت تؤثر عليه كل شىء . فنكس رأس الخجل ، فمالك عن هذا جواب .

صحائف عندى للعتاب طويتها  ستنشر يوما والعتاب طويل

## الفصل الحادى والثلاثون

لما رآى الصالحون سطوة الدنيا بأهلها ، وتملك الشيطان قياد الهوى لجأوا إلى حمى التضرع ، كما يأوى الصيد المذعور إلى الحرم .

فلو رأيتهم يمشون فى ثياب التجمل، عليهم قناع القناعة ، يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، ينامون ولانوم ، ويأكلون ولا أكل ، الثكلى ثاكل يوم المصيبة ، ولكن هدم الحزن أكثر من بناء العزاء .

لو كانت لك عين بصيرة عرفت القوم ، خط الولاية على وجه الولى قلم هندى لايعرفه إلا عالم به . تلمح القوم العواقب بأعين البصائر ، ولم يروا عن المطلوب عائقا ، ولاوجدوا من المقصود مانعا سوى النفس ، فتلطفوا لقهرها بحيلة لايعرفها ابن هند ، ولا يعلمها ابن العاص ، فلما أسروا الدنيا فتكوا بها ولافتك ابن ملجم .

قلوب أسود فى صدور رجال
إنك لو رأيت ذا العزم منهم لرأيت أسدا قد حورب .
إذا هم ألقى بين عينيه عزمه

هبت رياح الفكر ، فقمت أرض القلوب ، وألقى فيها بذر العزائم ، فسقته ماء مزن العيون ، فدبت الأرواح فى أغصان المعاملة ، فظهرت أزهارها ، يتضمخ عبير عبارة لسان حالها بذكر الله ، ففاح عنبر النور أطيب عرفا من المسك ، فقويت بريحه قلوب المريدين .

لا يحصل خطير إلا بخطر ، فاخنس فى خيسك ، يا مخنث العزائم الربح فى ركوب البحر ، الدرفى قعر اليم ، العلم فى ترك النوم ، الفخر فى هجر النفس .

من يحب العلم يدأب إليه ، وكذا من طلب الدر غاص عليه ، لولا التخلل بالعبا ما جاءت مدحة « أنا عبك راض » لأبى بكر ، ولولا إرسال البراءة إلى الضرة : طلقتك ثلاثا ، ما اشتقاقت الجنة إلى علىّ .

لو قرب الدر على جالبه ما لج الغائص فى طلا به
لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والإقدام إقبال

## الفصل الثانى والثلاثون

إذا أراد القدر نفع شخص هيأ قلبه لقبول النصائح ، وساق إليه موعظة على فراغ سوق المطر إلى الأرض الجرز ، فيخرج به زرعا مختلفا ألوانه ، وإذا أعرض القدر عن شخص ألقاه فى بحر الغفلة ، فكلما فتح عينيه رأى ظلمات بعضها فوق بعض .

نجائب السلامة مهيأة للمراد ، وأقدام المطرود موثقة بقيود الغفلة ، كم يتمنى المردود أن يصل ، هيهات ، كم محرم محروم ، صد من فيد هكذا .

يقر لعيني أن أرى رملة الحمى إذا مابدت يوما لعيني ولألها
ولست وإن أحببت من يسكن الغضا
بأول راج حاجة لاينالها

المخلوق هدف ، والمقادير سهام ، والرامى من تعلم ، فما الحيلة ؟ .

صوارم القدر إذا هزت قلقلت رقاب المقربين ، غضب على قوم فلم تنفعهم الحسنات ، ورضى عن قوم فلم تضرهم السيئات .

هبت عواصف الأقدار ، فخب بحر التكليف ، وتقلب بيد الوجد ساكن الألوان ، فقطعت أطناب الأسباب « ففريق هدى وفريق حقت عليهم الضلالة » ، ووقعت خيام المتكبرين فانقلب قصر قيصر ، وانكسر جيش كسرى ، وانبت حبل صاحب « تبت » ، وسدد شمل أبى طالب ، ووهى عمل أبى جهل .

فلما طلع الفجر ، وركد البحر ، إذا أبو طالب غريق فى لجة اليم ، وسليمان على الساحل سالم ، والوليد بن المغيرة يقدم قومه فى التيه ، وصهيب قد قدم ببضاعة التوحيد عن قافلة الروم ، وأبو جهل فى رقدة المخالفة ، وبلال ينادى : الصلاة خير من النوم .

## الفصل الثالث والثلاثون

الدنيا نهر طالوت ، والفضائل قد نادت « فمن شرب منه فليس منى » فإذا قامت الفائقة مقام ابن أم مكتوم وقع الأمر « إلا من اغترف غرفة بيده » .

فأما أهل الغفلة فارتووا ، فلما قام حرب الهوى ثبطتهم الفطنة ، فنادوا بألسنة العزم « لاطاقة لنا اليوم بجالوت وجوده » .

وأقدام داود الجد ما ونت ، فحاز السبق بالظفر .

الدنيا ظل ، إن أعرضت عن ظلك لحقتك ، وإن طلبته تقاصر، اخدمي من خدمني ، واستخدمي من خدمك » .

الزاهد لا يلتفت إلى الظل فيتبعه الظل ، والحريص كلما التفت لم يره ، أيها الحريص على الدنيا إلى كم تهيم فى بيداء التحير كالذى استهوته الشياطين.

ويحك ! ! أتحرص على الحرام وليس لأملك منتهى ؟ ويحك ! ! إن البحر لا ينزف ، فاقنع بالرى ، ويحك ! ! إن سير الأمانى سفر لا ينقطع ، هيهات أن يستغنى من لا يكفيه مايكفيه .

ويحك ! ! إن المفروح به هو المحزون عليه لو فطنت ، الدنيا خمر كلما شرب منه الحريص زاد عطشه ، أدرع من ثوب القناعة مايشتمل كل الأطراف ، فالقناعة تدفع بالراحة صدور الهم ، وتهدى الراحة إلى تعب القلب ، وكل الشر فى الشره .

وكم شارب شرق قبل الرى ، وعاء اللذة خناق من عسل ، وقع نحل على نيلوفر فأعجبه ورقه المنتشر ، فنام ، فلما جاء الليل تقبض الورق وغاص فى الماء فهلك النحل ، حرصك غيم يحجب عين القلب عن مشاهدة الآخرة، فابعث شمال العزم تمزق شملة شمله .

عندك مايكفيك وأنت تطلب مايطغيك ، وشرب الماء على الرى يورث الإستسقاء ، ما أمنعك من الدنيا ، ولكن الحمة قرين العسل ، ليس للحريص عيش يصبح وما قنع ، ويمسى وما شبع ، تراه أحير من بقة فى حقه ، خلف مالا يساوى جناح بعوضة .

إنما المراد من الدنيا قدر مايصلح البدن ، للسعى فيما خلق له ، فالاشتغال بالمراد أدعى للنقص فى المقصود .

إن جامع الأموال لغير البلاغ خازن للورثة، فهو يحرق نفسه بنار الحرص وينفع بربح جمعه غيره ، كانتفاع الناس بعرف العود المحترق .

كم قتلت الدنيا قتيلا قتلك ، كم أهلك حبها مثلك .

كم بالمحصب من عليـ ـل هوى طريح لايعلل
وقتيل بَيْنٍ بين خيـ ـف منى وجمع ليس يعقل

يا كنعان الأمل ، يانمرود الحيل ، ياثعلبة [1] البخل ، يانعمان [2] الزلل أنت فى جمـــع الأموال شبه حاطب ، وفى تبذير العمر رفيق حاتم [3] ، تمشى فى الأمل على طريق أشعب [4] ، فكيف بك إذا .

ندمت ندامة الكسعى لما رأت عيناه ماصنعت يداه

ألقيت نفسك فى جُب حب الدنيا ، فمتى يخلصها واراد الزهد ، فتسمع نغمات الفرح « يابشرى »

---

(١) هو ثعلبة الذى . سأل النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو له أن يرزقه الله مالا ليتصدق . فدعا له فكثر ماله حتى سكن خارج المدينة . فأرسل إليه النبى صلى الله عليه وسلم يطلب الصدقة فأبى وقال : هذه أخت الجزية . فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ياويح ثعلبة . فلما علم بذلك جاء يعرض صدقته فرفضها النبي صلى الله عليه وسلم . ورفضها بعده أبوبكر وعمر وعثمان . ونزلت فيه « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن . . . » الآية .

(٢) رجل كان يدمن الخمر على عهد النبي صلى الله عليه وسلم . وحده فى الشراب أربع مرات . ولعنه رجل ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يلعنه فإنه يحب الله ورسوله .

(٣) حاتم الطائى المشهور .

(٤) أشعب رأس الطفيليين بالمدينة .

# الفصل الرابع والثلاثون

يا جامدا عن وضع طبعه ، يحرك إلى وطن وضعه ، انظر لماذا خلقت ، وما المراد منك .

رض مهر نفسك يتأت ركوبه ، أمت زئبق الطبع يمكن استعماله ، تلمح بفجر الأجر من ظلام التكليف، وأرق خمر الهوى فما يفلتك صاحب الشرطة.

بحر طبعك أجاج (١) ، وماء قلبك عذب، والعقل بينهما قائم مقام الخضر فيا موسى الطلب لا تبرح عن السلوك ، حتى تبلغ بمجمع البحرين (٢) .

قف على قدم الصبر وإن طال الوقوف ، غلس على مقلوب كرسى : يا نائما طويل الليـــل ، سارت الرفقة ، طلعت شمس الشيب وما انتبهت . ولا وردت ماء مدين ولا جدت عليه أمة من الناس يسقون .

واسحرة القوم ، ما أضوأها ، قاموا على أقدام التحير بين كيس الحذر ، وشارع الشوق ، فسترهم ذيل الليل تحت خيم الظلام ، إن ناحوا فأشجى من يتيم ، وإن ندبوا فأصح من خنساء .

سقوا بميـــاه أعينهم هناك الضال والرندا
يأنفاس كبرق فى أنين يشبه الرعدا

لاحت لهم الجادة فلما سلكوها قالوا : « ربنا الله . ثم استقاموا » .

هيهات منك غبار ذاك الموكب

أملهم أقصر من فتر ، ومنازلهم أفقر من قفر ، أخبارهم أرق من النسيم ،

---

(١) أى ردى كالماء الأجاج وهو الملح .
(٢) يشير إلى قصة موسى وفتاه .

نومهم أعز من الوفا ، السهر عندهم أحلا من إغفاءة الفجر ، كلما افتتحوا سورة وجدوا لها وجد يعقوب بقميص يوسف .

احضر وقت السحر مع القوم حين تفريق الخلع ، فإن كنت تصلح أسهمت من نصيب « وإذا حضر القسمة أولوا القربى » .

لو صدرت عن صدرك صعداء أنفاس الأسف ، لأثارت سحابا يقطر من قطره قطر يصلح لواسطة العقد ، لو أرسلت عبرة على جفاء الجفا عاد زبد الزلل جفاء ، أبواب الملوك لاتطرق بالأيدى ، ولا تضرب بالأحجار ، بل بنفَس المحتاج .

وعذرى إقرارى بأن ليس لى عذر

إذا سارت ركائب الأسحار فابعث معها رسالة مضمونها : تلهف مغبون على حسرة محصر .

ياسائق العيس ترفق واستمع ... منى وبلغ إن وصلت عنى
عرِّض بذكرى عندهم عساهم ... إن سمعوك ساءلوك عنى
قل ذلك المحبوس عن قصدكم ... معذب القلب بكل فن
يقول أملت بأن أزوركم ... فى جملة الوفد فخاب ظنى

## الفصل الخامس والثلاثون

ياطالبا للبقاء فى غير معدنه ، يامقدرا للنجاة فى عنقه التلف ، بادر عمرا يهدمه الدمار ، ألبس البقاء الفناء ، كفى بالانتهاقصرا ، ويحك ،اخرج بالزهد من هذا الفناء إلى حضرة القدس وإعراض النفس ، فهناك لايتعذر مطلوب ولا يفقد محبوب .

ياهذا ، إعرف . أدلتك للطريق قلبك ، وأجهل الكل بالسبيل نفسك، سر على وفاق القلب لاعلى مراد النفس .

هوى ناقتى خلفى وقدامى الهوى  وإنى وإياها لمختلفان

إذا الهمة اركب مطايا الجد ، وإن طال السرى ، علامة التوفيق فصم عرى التوانى ، وآية الخذلان مسامرة الأمانى .

الهوى يحرض على العاجل ، فلو لاحت لليقين عزيمة إقدام نكص على عقبيه ، يامحب الدنيا قيمتك محبوبك ، لو علت همتك لارتفعت عن الدنيا ، تدعى الخلة (١) وأين أنت منها ، لاح لك من الهوى أقل شىء فآثرته علينا ، لقد كان دينار عملك مستورا لو لاحك (٢) « ولنبلونكم » .

وفى حالة السخط لافى الرضا  يبين المحب من المبغض

قلبك غائب فى طلب الدنيا ، فقد ضاع الحديث معك ، إن الهدف إذا انهدم بطل النشاب (٣) قلعت سكر الهـــوى ، فردمت به باب القلب فلم يتحرك .

ليس يحيك الكلام فى همم  أقربها منك عنك أبعدها

خرجت من عمران التقوى ، فوقعت فى قفر الزلل ، عزك سراب الطمع ، فمت صريع الظمأ ، انقرض العمر فى محاق (٤) الغدر .

ومن العناء رياضة الهرم

كم عزمت على طاعة وتوبة، ماالليل الهوى ماتبصر توبة، تبيت من العزائم فى شعار أويس (٥) فإذا أصبحت أخذت فى طريق قيس .

---

(١) يعنى المحبة .
(٢) ماتختبر عليه الدراهم وغيرها من الجواهر .
(٣) الهدف شاخص تصوب إليه السهام والنشاب السهام .
(٤) القمر فى أواخر الشهر القمرى .
(٥) أويس القرنى رأس الزهاد والمقصود أن صاحب الهوى يهدف قوى العزيمة .

تنقض مرر [١] العزائم عروة عروة ، وكل صريع بالهوى رفيق عُروة
كم دفنت كثيرا من الأعزة ، وهل يرجع كثير إلى عزة ؟

جنونك مجنون ولست بواجد طبيبا يداوى من جنون جنون

## الفصل السادس والثلاثون

أصدق فى باطنك ترى ماتحب فى ظاهرك ، رش سهم عملك بريش إخلاصك فى مقصدك تصب هدف الأمل ، واعجبا !! قوسك مكسور بالزلل ووترك مقطوع بالكسل ، فكيف تنال صدر العرض .

إذا أردت العلو فارتق درج الهوى، وإن شئت العز فضع جبهة التواضع وإن أردت الرياسة فارفع قواعد الإخلاص ، فو الله ماتحصل المناصب إلا بالمناصب ، والمبهرج [٢] وإن نفق مردود .

وقد يتزيى بالهوى غير أهله

إذا نزلت عن مطية الإخلاص ، مشيت فى حَسَك التعثير ، فتقطعت قدم القصد ، ولم تقطع المنزل . النفاق أعظم من الرياء ، والرياء ، نفاق المنافقين صير المسجد مزبلة ، فقام المنزه « لاتقم فيه أبدا » .

وإخلاص المخلصين رفع قدر الوسخ « رب أشعث أغبر » ، إذا هبت زعازع المناقشة لم تضر شجرة الإخلاص ، لأن أصلها ثابت ، فأما شجرة الرياء فعند نسيم « وقدمنا إلى ماعملوا من عمل » « اجتثت من فوق الأرض » .

لاتنظروا إلى جولة الباطل ، وارتقبوا دولة الحق ، إذا رأيت منافقا قد تبع فتذكر الدجال غدا والسامرى بالأمس ، وانتظر للسامرى لامساس وللأدباب لدُ .

---

(١) جمع مرة بالكسر وهى القوة .
(٢) المزيف من الدراهم ، ونعق أى راج .

شجرة الصنوبر تتم فى ثلاثين سنة، وشجرة الدباء تصعد فى أسبوعين، فتدرك الصنوبر ، فتقول شجرة الدباء : إن الطريق الذى قطعت فى ثلاثين سنة قطعتها فى أسبوعين ، فيقال: لك شجرة ولى شجرة. فتجيبها: مهلا إلى أن تهب ريح الخريف

كم متشبه بالصالحين فى تخشعهم ولباسهم وأفواه القلوب تنفر من طعم مذاقه « وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » :

فى ظلمة الليل يتشبه الشحر بالرجال ، فإذا طلع الفجر بان الفرق . فى صدر الضحى يتمثل السراب بالماء . فمن قرب منه لم يجده شيئا .

أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحى غير نسائه

تراهم كالنمل ، وماتدرى ماالدخل، أيها المرائى ، لمن ترائى ، لاتنقش على الدرهم الزيف اسم الملك ، فما كل سوداء تمرة ، ولايتبهرج الشحم بالورم .

## الفصل السابع والثلاثون

مجلس الذكر مأتم الأحزان، هذا يبكى لذنوبه ، وهذا يبكى لعيوبه ، وهذا على قوت مطلوبه ، وهذا لإعراض محبوبه .

يتشاكى الواجدون جوى واحداً والوجد ألوان

أتدرون لهذا الكئيب لمن أنّ ، وهذا الحزين كيف حن ، ذكر عهدا كان قد صفا ثم تكدر ، فانزعج الحال وتغير .

منازل كنت تهواها وتألفها أيام أنت على الأيام منصور

من سمع نوح الحمام ظنه لحن بلائه ، بل لما ذكر من ماضى العيش :

وإذا الغريب صبا إلى أوطانه شوقا فمعناه إلى أيامه

إنما يبكى المذنب على ديار عمرتها التقوى كيف أخربتها الذنوب .

إذا ذكرت نجدا وطيب ترابه وبرد حصاه آخر الليل حنت

يامن كانت له معاملة فترك ، يامن سخم الدستور وضرب على الحساب، زمان الوصال يستحق البكاء ، أطلال الحبيب تستوجب العزاء .

ماء النقيب ولو مقدار مضمضة شفاء قلبي وغير الماء يشفيني

الوقت يقتضيك ياعاصى ، فادر بالتوبه . منادى الوصال على باب القبول يصيح : «وسارعوا» .

الغيم رطب ينادى يا غافلين الصبوح
فقلت أهلا وسهلا مادام فى الجسم روح

يامن كان له قلب : أين قلبك :

يازمان الخيف هل من عودة إلى مغناك ذاك الأرحب

إن كنت قد فقدت قلبك فلا تيأس من وجوده :

فقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كل الظن ألا تلاقيا

سر فى بوادى الطلب مستغيثا وقل :

ردوا على ليالىّ التى سلفت لم أنسهن وما بالعهد من قدم

ودع طبعك لسفر التوبة ، وارفق شرعك فى طريق الصحبة ، واجهد راحلتك لتلحق الرفقة ، وتهيأ للإحرام قبل الوقفة ، وانفذ لواعج الشوق إلى منى قبل نخلة ، لعل رسالة الحب تصل إلى صاحب الكعبة ، ألا طال شوق الأبرار إلى لقائى ، ويأتى الجواب ، وإنى إلى لقائهم أشوق .

## الفصل الثامن والثلاثون

لاتعجبوا بصورة التعبد ، وتلمحوا حسن المقصد ، ليس كل مصل بمتعبد، ولا كل صائم بزاهد ، ولا كل مستمع بخاشع ، ولا كل متصوف بصاف .

وما كل من أومى إلى العز ناله ودون العلا ضرب يدمى النواصيا

ليس كل مستدير يكون هلا . لا . لا .

ليس التكحل فى العينين كالكَحَل

كم حول معروف من دفين ذهب اسمه لما بلى رسمه ، ومعروف معروف

ولا دار أقفرت دارة الحمى ولا كل بيضاء الترائب زينب

ذهب أهل التحقيق ، وبقيت بنيات الطريق ، واعجبا لقد رحل القوم ، وبقى أهل ألسنة ، خلت البقاع من الأحباب ، وبتدلت العمارة بالخراب .

يادار الأحباب عندك خبر أين ساروا ، وهل لهم مستقر .

كان المشايخ فى قديم الزمان أصحاب قدم ، والمريدون أصحاب ألم ، فذهب القدم والألم . كان المريد يسأل عن غصة ، والشيخ يعرف القصة ، واليوم لاقصة ولا غصة .

كان الصوفية قديما يسخرون بالشيطان ، والآن يسخر الشيطان بالقوم ، كان الزهد فى بواطن القلوب ، فصار حينئذ فى ظواهر الثياب .

سلام على تلك الخلائق إنها مسلمة من كل عيب ومأثم

ويحك : صن قلبك لاجسمك ، وأصلح نبتك لامرقعتك ، إذا كان العَلَوى ثابت النسب لم يحتج إلى ضفيرتين ، أتحدو ومالك بعير ، أتمد القوس ومالها وتر ، أتتجشأ من غير شبع .

واعجبا !! من وحمى بلا حبل ، إن لم تكن يعقوب الأمل ، فلا تكن زليخا الهوى ، وأسفا لقلوب أذا بها حب الدنيا ، ولأسماع آمالها حديث خرافة يتلاعب بها الغرور فى بحر الهوى تلاعب الموج بالعريق .

صح بالمنقطعين فى بوادى الغفلة ، ترى أى ذئب اقتطعهم ، أين تعبد سَرى ، أين جود الجنيد ، أين مجاهدة أبى يزيد ، أين جوع الشبلى ، ياراضيا بصفة ابن أدهم ، أين عزم إبراهيم .

أما الخيام فإنها كخيامهم

انكسر مغزل رابعة ، وبقى قطن الحلاج .

لم تبق إلا روايات وأخبار

أيها الحادى بأحداج الجمال لاتنح بالربع إن الربع خالى
ماعسى ترتجى منى ومنىَ أقفرت من أهلها فهى بوالى
لهف نفسى لليال سلفت آه لوترجع لى تلك الليالى
لاتقل لى بمنى نلت المنى بمنى كان من القوم إنفصالى

## الفصل التاسع والثلاثون

أيها المبتلى بحب الدنيا وماينال منها إلا ماقدر له ، كم تقول لاترزق ، هذا موسى يقول : أرنى ، ومارآى ، ومحمد يزعج من منامه ليرى وماطلب .

فقضاها لغيرى وابتلانى بحبها

ياهذا . محبة الدنيا محبة عناء به مات المحبون ، إن أقبلت شغلت ، وإن أدبرت قتلت .

ويلاه إن هى أقبلت أوأعرضت وقع السهام ونزعهن أليم

ويحك ، إن الفقر أصلح لك ، وإن القصد أرفق بك ، غير أن الهوى لاينظر العواقب .

كم فى طى مكروهك من مصلحة ، لوزالت غشاوة العين أبصرتها ، سبحان من قضى على العقل الكامل بمداراة الطبع الجاهل .

ناظر العقل إلى الأخير(١) ناظر ، والطبع لايرى إلا الحاضر ، كم يتعب

---

(١) أى إلى الطبع الجاهل .

الشيخ فى تقويم الطفل إنك لوفسحت لنفسك فى هواها لضيقت عليك طريق الإخلاص .

إنها لتبذّر بضاعة العمر بكف التمزيق كالخرقاء وجدت صوفا ، يامستغيثا من الفقر بألسنة الشكوى ، حبس الفقر حصن ، إنه داء الكريم .

الفقر جب ، والفاقة غيابة ، والشهوات رق ، والدنيا سجن المؤمن ، فيايوسف الطلب ذق مرارة الحب . وكمد العناية ، وصابر رق البيع ، ودار دار السجن ، لعلك تخرج إلى مملكة « اجعلنى على خزائن الأرض » .

دافع ليل البلاء فما أسرع فجر الأجر ، « أليس الصبح بقريب » .

فقر الدنيا عدم كله وجود ، والغنى فيها وجود كله عدم ، عرضت على نبينا صلى الله عليه وسلم بطحاء مكة ذهبا فأبى ، يامحمد ممن تعلمت القناعة ، قال لسان الحال : من شره أبى ، كان الرجل من الصحابة يدعى إلى المال حلالا فيقول : لا . لا .

يامعاشر الفقراء ، زينوا حلة الفقر بحلية الإيمان ، فالمعطى المانع ، والفقراء الصّبر جلساء الله .

إصبروا على عطش الفاقة ، فالحرة تجوع ولا تأكل بثديها ، إن سألتم فسلوا مولاكم ، فإن سؤال العبد غير مولاه تشنيع على السيد .

يامعاشر ألغا فلين الواقفين مع الأسباب ، إنما المعطى والمانع واحد ، فلا تجعلوا لله أندادا .

إذا عرضت بلية فتعرضوا بالمحراب ، وأكتفوا من السؤال بالخدمة ، فإنا لانضيع أجر من أحسن عملا .

أتشغلون بنـــا وننساكم ؟ كلا . من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ماأعطى السائلين .

وإذا طلبت إلى كريم حاجة فلقاؤه يكفيك والتسليم

ويحك ! إن الفقير الصادق ترك الدنيا أنفه ، رآها قاطعة فقاطع ، جاز على جيفة مستحيلة فسد منخر الظارف وأسرع ، لما سلك سبل القناعة وقع على كنز ماوقع عليه الإسكندر ، فقلبه أغنى من قارون ، وبيته أفرغ من فؤاد أم موسى .

ومن كان فى برد القناعة رافلا
أصاب الغنى فى الفقر والخصب فى المحل

إذا حشروا يوم القيامة بادروا باب الجنة ، فتقول لهم الملائكة : قفوا، فهذا موضع الحساب ، فينفضون أكمام الإدلال من يد المعوق ويقولون : هل أعطيتمونا شيئا تحاسبوننا عليه ؟

الصبر مثل اسمه فى كل نائبة لكن عواقبه أحلى من العسل

ويحك ! كلما عاش أملك مات الفقر .

كأننى كلما أصبحت أعتبه أخط حرفا على صفح من الماء

واعجبا لمن يجمع المال جمع الثريا نفسها ، كيف تأتى الأقدار فتفرقه تفريق نبات نعش . يا كدر القلب ، أثار كدر باطنك ماتخفى على ناظرك .

أسرار القلوب تبين فى صفحات الوجنات ، لو سمعت كلامى بقلبك كان طول الأسبوع نصب عينيك ، إنما تسمعه بأذنك ، وفرق بين السامعين .

كثر المال على الصديق وثعلبة ، ووقع التفاوت بين النحل والنحال [1] .

وليس ذوات المخلب السبع

---

(١) النحال كناية عن ثعلبة . والنحل كناية عن الصديق لأنه باذل بلاعوض .

أماحب الدنيا عندك فراسخ ، وأما قلبك من الموعظة فعلى فراسخ (١) وإذا غلب الهوى فمن ننبه، وإذا غلب القلب فمن نحدث .

إذا كان قلبي موثقا فى حبالكم وجسمى لديكم كيف أفهم عنكم

## الفصل الأربعون

يامشغولا بالعمل للدنيا ، والدنيا تعمل فيه ، تجمع مايفرقك ، وتوصل مايمزقك ، ويحك ! أتبنى قصرا وتهدم مصرا .

يؤذى الهوى الآدمى ، وعلاجه فى الحسم ، متى استعصى الداء فالكى أنفع ، مايفيدك من جار السوء ، وليتك منه تسلم ، المال كالماء كلما زاد غرق ، قنعت العنكبوت بزاوية البيت ، فسيق الحريص إليها وهو الذناب ، فكان قوتا لها ، وصوت بك نذير العبرة ، « رب ساع لقاعد » .

ويحك !! طلق كواذب الآمال لتكون وارث مالك ، أعظم المغبونين حسرة من نفع كده لغيره، أفضل أعمال البخيل الصدقة ، لأنه يحارب سبعين شيطانا أصغرها إبليس وأعظمها نفسه ، وجنودها أقوى ، ومن يقوى بأسد الحرص وكلب الهوى ، وحنزير الشرة صعب حربه .

امدد يدك بالصدقه ، فإن لم تطلق فاكففها عن الظلم ، أطلق لسانك بالذكر ، فإن لم تستطع فاحبسه عن الغيبة ، كم يقف السائل سائل الدمع على باب الذل لديك ، فتقول هذا كلام الجائع عند الشبعان هذيان .

ويحك ! إن الصدقة صداق الجنة، قد أربح جميع الأكياس جمع الأكياس « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا » انظر فى أخلاق الفقير لا فى أخلاقه.

وماضر نصل السيف إخلاق غمده

---

(١) راسخ الأولى من الرسوخ . والثانية جمع فرسخ .

إن أعطيت فاحذر من الرياء ، فإن سلمت منه فإياك والمن ، كان الفضيل ميتا بالجهل وابن آدم مقتولا بالهوى ، والسبتى هالك بالمالك ، والشبلى من جند الجنيد ، فنفخ فى صور التوفيق للإيقاظ ، فانشقت عنهم قبور الغفلة ، فصاح إسرافيل الاعتبار « كذلك يحيى الله الموتى » .

إنما سمع الفضيل آية فذلت نفسه واستكانت ، وهى كانت ، إنما زجر ابن أدهم بموعظة واحدة. هاتف عاتب ، ولائم أخرجه من بلخ إلى الشام .

كانت عقدة قلوبهم أنشوطة ، وسد قلبك كله عقد ، أقبلت ديم المواعظ على ندا أرياض القلوب ، فالتقى الريّان ، كانت الأعمال تعرض عليهم فيرون الخيانة نقض عهد الزهد .

حلفت بدين الحب لاخنت عهدكم وتلك يمينى لو عرفت غموس

كان الفضيل قد تعود البكاء فكان يبكى فى نومه حتى ينتبه أهل داره ، وكان ابن أدهم من شدة خوفه يبول الدم ، وكذلك سرى .

إذا خرجت القلوب بالتوبة من حصن الهوى، إلى بيداء الفكر ، جرت خيول الدمع ، فى حلبات الوجد كالمرسلات عرفا ، فإذا استقام زرع الفكر قامت العبرات تسقى ، ونهضت الزفرات تحصد ، ودارت رحى التحير تطحن واضطرمت نيران القلوب تنضج ، فحصلت للقلوب ملة بها يتقوى فى سفر الحب .

اسمعوا بحرمة الوفا ، فما كل بطل شهيد ، طالما أهملتم أراضى القلوب بالهوى ، فأحيوها بوابل العبرات .

إذا اخرجتم من المجلس فلا تذهبوا إلى البيوت ، واطلبوا هذه المساجد الخراب ، وضعوا وجوهكم على التراب ، واستغيثوا بألسنة الفاقة من قلوب قد أحرقها الأسف على ضياع العمر فى الهوى .

وإن شفانى عبرة مهراقه فهل عند رسم دارس من معول

## الفصل الحادى والأربعون

ياجامد العين اليوم ، غدا تدنو الشمس من الروس ، فتفتح أفواه مسام العروق فتبكى كل شعرة بعين عرقها ، كأنك بالسماء قد نفضت أكمامها لسرعة مورها ، وانتثرت النجوم ، ويوسف الهبة قد برز فقد قميص الكون .

نفخة فم الريح اليوم تحرك السحر ، نفخة من فيه فى الصور تعمل فى الصور. نفحة نفخة الشتاء فى صور البرد أماتت صور الأشجار . ونفس نفس الربيع أعاد الروح ، ريح الدنيا بين مثيرة ولوائح ، والصور نثير دفائن الأبدان .

## الفصل الثانى والأربعون

يامن مطية عمره قد أنضاها الحرص هلا كففتها ؟ قليلا بزمام القناعة ، فرب جد أعطب ، ورب أكلة تمنع أكلات ، وكثرة الماء شرق أوغرق .

أخل بنفسك فى بيت العزلة ، واستعن عليها بعذول اللوم ، ونادها بلسان التوبيخ ، إلى متى وحتى متى « ألم يأن » .

سرق لص الشيب رأسمال الشباب ، فأصبحت مفلس العمر .

فهل لى اليوم إلا زفرة الندم

يانفس ، ذهب عرس بلقيس ، بلى جمال شيرين ، وتمزق فرش بوران ، وبقى نسك رابعة . كانت أيام الشباب كفصل الربيع ، وساعاته كأيام التشريق ، والعيش فيه كنور الربيع ، فأقبل الشيب بعد الفنا ، وتوعد بصفر الإنا ، فأرض مشدود أطناب العمر ، ونقض مشيد مرائر التقوى .

أديل ضعف الشيب على الشباب ، فعمل معول الوهن وراء الجلد فى الجله ، فصار مربع الحياة قفرا قد حلت بطاحـــه ، ومربع اللهو وهنا تذروه

الرياح ، فإن الهالك من ضل فى آخر سفره ، وقد قارب المنزل .

أبقى بعد الشيب منزل غير البلى أبلى . أنت تدرى أين تنزل ، مرحلة الشيب تحط على شفير القبر وقد اتخذت من رأى الأمل حصنا ، فما هذا الأمل .

أتطلب ربيع ، وأنت فى ذى العقيدة ، اللذة سلاف ، ولكن مزاجها زعاف ، اتباع الهوى عار فى العاجلة ، ونار فى الآجلة . ومن يبصر يبصر . أيظن الخائض فى الدنيا أن له فراغا عنها ، هيهات ، ماتفرغ منها إلا من اطرحها .

فما قضى أحد منها لبانة ولا انقضى أرب إلا إلى أرب

كلا ، إن الذى يقطعه عن الإنابة اليوم معه فى غد ، وما يزيده مرور الأيام إلا رسوخا بدليل « يشيب ابن آدم وتشيب معه خصلتان » يطلب أن ينال رضاه فى غاية لاتنال ، وإنما وجد الراحة فى الدنيا من خلاها ، لامن خاللها .

لاح لهم عينها فما ضيعوا الزمان فى النوم ، تلقتهم خطرات الرياضة على الرياض فاستوطنوا فردوس الأنس فى قلة طور الطلب .

يامؤثرا على بساتين القوم مقابر النوم ، ليس فى طريق الوصال تعب . إنما التعب مادام فى النفس بقية من الهوى ، الظلمة لليل لالليلى .

والله ماجئتكم زائرا إلا رأيت الأرض تطوى لى
ولا انثنى عزمى عن بابكم إلا تعثرت بأذيالى

المنحرف ضال عن الجادة ، ياهذا طر .

بجناح الخوف والرجا من وكر الكسل
على حد مستقيم الحد لاتعدل عن العدل

فإذا أنت فى مقعد صدق .

# الفصل الثالث والأربعون

وقت العارف جدكله ، لعلمه بشرف الزمن ، النهار مطالب بحق الملك ، والليل يقتضى دين الحب ، فلاوجه للراحة .

لماعا ينت أبصار البصائر يوسف العواقب ، قطعت أيدى الهوى بسكين الشوق ، فولوج الجمل فى سم الخياط أسهل من دخول اللوم فى تلك الأسماع.

فإذا حان حين الحين فرح سائر الليل بقطع المنزل ، وصاحت ألسنة الجد بالعاذلين « فذلكن الذى لمتننى فيه » .

قلوب أبت أن تعرف الصبر عنهم
فكيف يستامها مفلس

غيره :

وكيف ينال المجد والجسم وادع وكيف ينال الحمد والوفر وافر

كلما تعاظمت الهمم تصاغرت الجثث .

وألست ترى الأجسام وهى ضئيلة نواحل إلا والنفوس كبار

قال يحيى بن معاذ : لتكن الخلوة بيتك ، والمناجاة حديثك ، فإما أن تموت بدائك ، أو تصل إلى دوائك :

لاتزل بى عن العقيق ففيه وطرى إن قضيته أو فنحبى
لارعيت السوام إن قلت للصحبة حق أو قلت للعين هبى

دخلوا على أبى بكر النهشلى وهو فى السوق ، وهو يركع ويسجد ، دخلوا على الجنيد وهو فى النزع وهو يصلى ، فسلموا عليه فرد عليهم وقال : هذا وقت يؤخذ منه : الله أكبر :

إذا اشتغل اللاهون عنك بشغلهم جعلت اشتغالى فيك يامنتهى شغلى

فمن لى بأن ألقاك فى ساعة المنى ومن لى بأن ألقاك والكل لى من لى

دارت قلوبهم فى الخوف دوران الكرة تحت الصولجان ، فلصقت بها أكف الأشجان فى فلوات المحبة ، فمن بين سكران يبث ، وبين منبسط يقول ، وبين خائف مستجير .

إذا لعب الرجال بكل فن رأيت الحب يلعب بالرجال

نجائب أبدانهم أنضاها سير الرياضة ، تجوهرت أرواحهم فى بوتقه الجسم ، فتراها فى سفر الشوق بلسان مشغول بالذكر ، والسر مغلوب بالوجد والعين عين الخوف ، والنفس هاربة إلى دار الزهد :

إنما أهرب مما حل بى منك إليك

كان الحسن كأنه حديث عهد بمصيبة ، كان يبكى حتى يرحم ، وكان مالك ابن دينار قد أسود طريق الدمع على خده .

ومن قلبه مع غيره كيف حاله
ومن سره فى جفنه كيف يكتم

كان عطاء السلمى يبكى فى غرفته حتى تجرى دموعه فى الميزاب ، فقطرت دموعه يوما ، فصاح رجل : ياأهل الدار ، ماؤكم طاهر أم نجس ؟ فقال له عطاء : ياهذا ، بل نجس فاغسله . فإنه دموع من عصى الله .

كان داود عليه السلام يؤتى بالإناء ناقصا فلا يشربه حتى يتمه بدمعه .

ياساقى القوم إن دارت إلى فلا
تمزج فإنى بدمعى مازج كأس

# الفصل الرابع والأربعون

يامستفتحا باب المعاش بغير مفتاح التقوى كيف يوسع لك طريق الخطايا ، وتشكو ضيق الرزق ، ولو اتقيت ماغير عليك مطلوب .

مفتاح التقوى يقع على كل باب ، مادام المتقى على صفاء التقوى لايلق إذاً أذى ، فإذا انحدر عن التقى التقى بالكدر .

فلما توليتم علينا تولينا

لاتزال بحار النعم على الخلق فى زيادة حتى يغيروا ماباًنفسهم ، ويحك!! إنما خلقت الدنيا لك ، أفتجل عليك بما هو فى ملكك ، إنما فى طبعك شره ، والحمية أرفق .

ياأعز المخلوقات علينا ، أرض بتدبيرنا ، المحب لايتهم ، وإنعامنا على ماخلق لك لايخفى عليك ، فكيف ننساك ، وأنت الأصل .

ليس العجب تغذى المولود فى حال الحمل بدم الحيض لاتصاله بالحى ، إنما العجب أن البيضة إذا انفصلت عن الدجاجة ، فمن البياض يخلق الفروج ، وبالمح صفار البيض يتغذى .

فقد أعطى المخلوق زاده قبل سفر الوجود ، إذا انفقأت بيضة الغراب خرج الفرخ أبيض ، فتنفر عنه الأم ، لمباينته لونها ، فيبقى مفتوح الفم ، والقدر يسوق إلى فيه الذباب ، فلايزال يتغذى به إلى أن يسود لونه ، فتعود إليه الأم .

فانظروا إلى شفقة طير الرحمة ، ألهم النملة ادخار القوت ، ثم ألهمها كسر الحب قبل إدخاره ليلا ينبت ، والكزبرة إذا انكسرت فلقتين فإنها تنبت ، ولذلك تكسرها أربعا .

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

لو رأيت العنكبوت حين تنى بيتها ، لشاهدت صنعة تعجز المهندس ؛ إنها تطلب موضعين متقاربين ، بينهما فرجة يمكنها مد الخيط إليها ، ثم تلقى لعابها على الجانبين فإذا أحكمت المعاقد ، وركبت القمط كالسدا ، اشتغلت باللحمة، فظن الظان أن نسجها عبث ، كلا ، إنها شبكة للبق والذباب ، وإنها إذا أتمت النسج انزوت إلى زاوية ترصد رصد الصائد .

فإذا وقع فى الشبكة شىء قامت تجنى ثمار كسبها ، فإذا أعجزها الصيد طلبت لنفسها زواية ، ووصلت بين طرفيها بخيط ، ثم علقت نفسها بخيط آخر ، وتنكست فى الهواء تنتظر ذبابة تمر بها ، فإذا دنت منها رمت نفسها إليها ، فأخذتها ، واستعانت على قتلها بلف الخيط على رجليها .

فتراها علمت هذه الصنعة بنفسها؟أو قرأتها على أبناء جنسها ؟ أفلا تنظر إلى حكمة من عملها ، وصنعة من فهمها .

لقد نادت عجائب المخلوقات على نفسها ، ترشد الغافلين إلى باب الصانع، غير أنهم عن السمع لمعزولون .

## الفصل الخامس والاربعون

خلقنا نتقلب فى وادى الأسفار إلى أن يستقر بالقوم المنزل . السفر الأول من السلالة من الطين . السفر الثانى سفر النطفة من الظهر إلى البطن ، السفر الثالث من البطن إلى الدنيا ، السفر الرابع من الدنيا إلى القبور ، السفر الخامس من القبور إلى العرض . السفر السادس من العرض إلى منزل الإقامة .

قد قطعنا نصف السفر ومابعد أصعب ، إخوانى ، الستون مراحل ، والشهور فراسخ والأيام أميال ، والأنفاس خطوات والطاعات رءوس الأموال ، والمعاصى قطاع الطريق والربح الجنسة والخسران النار .

ولهذا الخطب شمر الصالحون عن سوق الجد فى سوق المعاملة ، وودعوا بالكلية ملاذ النفس . كلما رأوا مراكب الحياة تخطف فى بحر العمر شغلهم هول ماهم فيه عن هوى النفس فى عجائب البحر ، فما كان إلا عن قليل حتى قدموا من السفر ، فاغتقتهم الراحة فى طريق التلقى .

فدخلوا بلد الوصل ، وقد حازوا ربح الدهر

ياجبان العزم لوفتحت عين البصيرة فرأيت بإنسان الفكر ما نالوا لصاح لسان الطيف « ياليتنى كنت معهم » .

أين الأرض من صهوة السماء ، ماتدرى ما أنت ، ولا تدرى من هم .

ياقلب ما أنت من نجد وسائله
خلفت نجدا وراء المدلج السارى
أهفو إلى الركب تعلونى ركائبهم من الحمى فى أسيحاق وأطهار
تفوح أرواح نجد من ثيابهم عند القدوم لقرب العهد بالدار
ياراكبان قفالى واقضيا وطرى وحدثانى عن نجد بأخبار
هل رَوضت قاعة الوعساء أو مطرت
خميلة الطلح ذات البـــان والغار
أم هل أبيت وداري عند كاظمة
دارى وسمـار ذاك الربع سمارى
فـــلم يزالا إلى أن نم بى نفسى
وحدث الركب عنى دمعى الجارى

ويحك ! فى صناديق هذه الأيام أودعت بضائع القوم ، فى هذه المزرعة المخلاة بذروَحب الحُب . فإذا حصدوا نادى .

أجارتنا إنا غريبان هاهنا وكل غريب للغريب نسيب

حل ركب المحبة فى ظلام الدجى ، فصبح القوم المنزل ، ونحن على غير

طريق ، وأسفاه من قلة الأسف ، واحزناه على عدم الحزن ، قفوا على آثار السالكين لعله يلحق المنقطع .

ياساكنا بالبلد البلقع ويادیار الظاعنين اسمعی
ليست بأطلالی ولكنها رسوم أحبابی فنوحوا معی

يادیار الأحباب أين سكانك ؛ يامرابع الألباب أين قطانك ، هاإنها منازل تعودت منی إذا شارفتها التسليما .

يامتخلفا ماجاء مع المعتذرين ، رحل الركب فی زمان رقادك ، فإذا قمت من الكرى فأقم مأتم الندب ، قف على الرسوم وإنك على انقطاعك ، لعلك تؤنس رفيق « تجدنی » .

إذا جزت بالنور عرج يمينا فقد أخذ الشوق منا يمينا
وسلم على بانة الواديين فإن سمعت أوشكت أن تبينا
وروى ثری أرضهم بالدمو ع وخل الضلوع على ماطوينا
أراك يشوقك وادی الأرا ك أللدار تبكی أم الساكنينا
سقی الله مربعنا بالحمی وإن كان أورث داء دفينا

## الفصل السادس والأربعون

إخوانی إذا قمتم عن المجلس فادخلوا دار الخلوة ساعة ، وشاوروا نصيح الفكر ، وحاسبوا شريك الخيانة ، وتلمحوا تفريط الكسل فی بضاعة العمر وتأسفوا على ذنب كان ، أو حظ من الله فات .

البدار البدار نحو البقية ، فيكفی المفرط حزن ماضاع ، لاتحتقروا يسير الخير ، فالذود إلى الذود إبل ، ضلت قلوبكم فی بوادی الهوى ، فقوموا على أقدام الطلب ، وألقوا أزمة السير على حالتی الأسف والندم ، وتحسسوا

من يوسف ، وجد وافى نشدان ضالتكم ، ولا تيأسوا من روح الله ، فكم شفى من أشفى على الهلاك .

عرجوا بالرفاق نحو الركب وقفوا وقفة لأنشد قلبى
وخذوا لى من النصيبِ لماماً أو ردا بى إلى العذيب وحبى
فهبوب الرياح من أرض نجد قوت روحى وجذا من مهب
يانسيم الصبا ترنم على الروح بصوت يشجى وإن طار لبى
من معيد أيامنا بلوى الجز ع وهيهات أين منى صحبى

واعجبا : ماأنضر الأجساد ، لكن فُقد نظر القلوب ، إذا لم يحرجك الربيع وأزهاره ، والسماع وأوتاره ، فمن أنت ، أو فما أنت ؟

ويحك : نوح الحمام غزل لوكان فى قلبك محبة ، فابك بكاء الجنيد لعلك تقع بسر سَرِى ، بع مال الهوى فيمن يزيد إن شئت لحاق أبى يزيد .

كم دعتك فرصة لو كنت أجبتها ، وإن جناب الباب لفسيح ، غير أن الجهل مطرود ، ويحك : قد لاحت نار القرب من زناد المواعظ فقم على أقدام الطلب لعلك تجد على النار هدى .

لأى مرمى ترَجر الأيانقا إن جاوزت نجدا فلست عاشقا
وإنما كان بكائى حاديا ركب الغرام وزفيرى سائقا

واعجبا من الواقفين على مواقف إن وفقنا ، ثم لايعترضون لنجائب القبول ، إن يريدون إلافرارا .

ويحك ! دنت عساكر البطالة فانفروا خفافا وثقالا ، خذوا من الدنيا قدر مايعمر القنطرة ، ولعمرى إن ضرورات المعاش تعرض فى وجه المراد فتعثر السالك « ومن يتق الله يجعل له مخرجا » .

ياهذا . إن جرى القلم بمحبوب أو مكروه فلا يكن فى صدرك حرج منه ، دليل محبته لك فى الأزل حراسة توحيده عندك .

والتخويف سوط يسوق النفس عن ديار الكسل ، وماتظنه تعذيب هو تهذيب ، ورب تقويم بالكسر .

تخريق الجيب من الثواب جعله قميصا « ولم تذنبوا » صولة الوالدتحفظ أصول الأدب ، وإن كان الحب فى السويداء .

بكت العيون وأنت طارفها

ود تقادم عهـــده فصفـا وجديد ود ليس يخلقه

لما ذاق آدم وحواء من الشجرة دارا فى دائرة التبختر ، فضربهما صولجان البعد فهبطا وضارب الكرة يسعى بنفسه فى طلبهما ، « هل من تائب هل من سائل » .

فلولا البعد ماجمد التدانى ولولا البين ماطاب التلاقى

ياقائما فى سوق الأرياح ماذا حصلت، يامنقطعا عن الطريق هلا وصلت . أتراك اشتغلت بنا أوعنا ؟

يامنكر ، يانكير ، انزلا إلى بساتين الأرياح فى دار المعاملة ، فانظرا ، هل استصحب شوكة من الشك ، أو وردة من اليقين استنكهها فمه الذى قال: « بلى » يوم « ألست » هل غير طيبه طول مقامه فى ديار الغفلة ؟ هل انجاس زلله مما يدخل قليلها تحت العفو ، هل تجد ماء توحيده فى قليب قلبه يبلغ قلتين [1] أنا مقيم له على الوفا بكل حال فانظر ماحال .

ألا حبذا نجدا وطيب ترابه وأرواحه إن كان نجدا على عهد

ألاليت شعرى عن عوارضتى قبا بطول الليالى هل تغيرتا بعدى

وعن علويات النسيم إذا سرت بريح الخزامى هل تمر على نجد

---

(١) يعنى لاتؤثر فيه النجاسات .

# الفصل السابع والاربعون

من تفكر فى قرب رحيله تشاغل بالتزود ، لبئس ماصنع بائع نفسه النفيسة بالأعراض الخسيسة .

إن الروح فى ذاته جوهر لايتجزأ ولا يموت ، والجوهر لاقيمة له ، وإنما آلات البدن خادم له ، تعين على السفر له فى زجاجة القلب .

نار كالسراج ، ضوءها الحياة ، والدم دهنها ، والحركة نورها ،والشهوة حرارتها ، والغضب دخانها ، وقد اتخذمن مقدم الدماغ حارسا ، ومن وسطه وزيرا ، ومن مؤخره حافظا ، وجعل العقل أستاذا ، والحس تلميذا ، وفرق الأعضا فى خدمته رجالاوركبانا ، وجعل الدنيا لهميدانا ، يجول فيه فى صف حزبه ، لمحاربة أعدائه ، فإن غلب قهر كسرى ، وإن غلب فلا أحد (١) .

لما تيقظ الأولياء لهذا السفر خاضوا فى ظلمات الطبع يقطعون بأقدام المجاهدة ، فلاح لهم نور الغيب فسروا ، فإذا هم على باب الوصول ، الفقر حليتهم ، والليل لذتهم ، والخشوع صفتهم .

طال حبسهم فى الدنيا فضجوا إلى الحبيب ، فلو انتبهت بالليل لسمعت أصوات أهل الحبوس .

ياوقـــوفا ما وقفنـــا فى ظلال السمرات
تتشاكى ماعنـــانا بكلام العـــبرات

أطيار الأشجار كلما هدلت حمائم الشجون هطلت غمائم العيون ، فإذا كان حين توفاهم الملائكة فتح القفص عن روح تطلب الروح ، فتتحير بفزعة « من راق » فيهتف بها هاتف الوداد « ارجعى إلى ربك راضية مرضية » ،

---

(١) هنا يبدو أثر ابن الجوزى فى الشيخ الأكبر محى الدين عربى ( انظر التدبيرات الإلهية للشيخ الأكبر ) .

فتنسى مرارة الكاس بحلاوة الخطاب ، فتهون شدائد الموت .

فما لجرح إذا أرضاكم ألم

يابعيدا عنهم ، أين أنت منهم ، لاتحسبن الأمر سهلا .

سل سبيل أشهل ، أتصقل سيفا ليس فى شبحه جوهرية ، أتحمل صعبا على الرياضة ؟

وهل ينهض البازى بغير جناح

من لم يهزه يسير الإشارة ، لم ينفعه كثير العبارة ، أترى فى نيل مواعظى مقرطس ؟ بلى ، وربما وقعت نبلة فى قلب حزين ، ولم يدر الرامى .

سهم أصاب وراميه بذى سلم

سر فى السر على أقدام العزيمة ، وليكن همك الظفر لاالغنيمة ، فالعز لاينالاه جبان ، وإن أكتب الأقلام الأسنة .

انتبه من رقاد الغفلة ، فقد طلع ضوء الشيب ، أسرع فى سير الجد فقد رحلت الرفقة وصوت فى أودية الأسحار لعلها ترحمك الساقة .

وتلمح آثار السالكين لعلك تقع على الجادة ، فإذا لحقت أعراض الركب فقف نفسك على خدمة الإبل ، فربما دخلت خيمة من أحببت .

فقلت دعونى واتباعى ركابكم أكن طوع أيديكم كما يفعل العبد
ومابال زعمى لايهون عليهم وقد علموا أن ليس لى منهم بد

---

تم كتاب اللطائف للشيخ الإمام أبى الفرج ابن الجوزى رحمه الله

وذلك فى منتصف ذى القعدة سنة سبع وثمانين وستمائه ٦٨٧ هـ نفع الله به صاحبه وكاتبه وقارئه وجميع المسلمين .

آمين يارب العالمين

# الطب الروحانى

لأبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى البغدادى الحنبلى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى قدر الداء ودبر الدواء ، وكم وهب لمن أشفى على شفا الهلكة الشفاء .

أحمده على كل ماصدر عن قضائه وجاء ، وأعلق بفضله ومنه الرجاء ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لاشريك له نور الفضاء فضاء ، (١) وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أشرف من وطىء الأرض والسماء، وعلى أصحابه وأزواجه صلاة تعم الأتباع والأولياء ، وسلم تسليما كثيرا .

لما جمعت كتابا فى طب الأبدان وسميته لقط المنافع أردت أن أشفعه بكتاب فى طب النفوس أسميه الطب الروحانى ، فإن طب الأبدان إصلاح الصور ، وطب النفوس إصلاح المعانى ، وهى أشرف ، وإلى الله سبحانه الرغبة فى النفع العاجل والآجل ، إنه جدير بتبليغ الآمال من منه .

## مقدمة قبل الكتاب

اعلم أن جميع ماوضع فى الآدمى إنما وضع لمصلحته ، إما لاجتلاب نفع كشهوة المطعم ، أو لدفع ضرر كالغضب ، فإذا زادت شهوة المطعم صارت شرها فآذت ، وإذا زاد الغضب أخرج إلى الفساد .

وهذا الكتاب موضوع لاستعمال قانون الصواب من خلال الباطن ، وكف كف (٢) الهوى عن المؤذى منها ، وعلاج ماخرج لموافقة الشهوة عن القانون الصحيح ، وقد قسمته ثلاثين بابا .

---

(١) أى أنار .

(٢) أى منع يد الباطل .

# البَابُ الأول

## فى فضل العقل

قد اختلف الناس فى ماهية العقل ومسكنه وأطالوا، وقد رويت فى فضله أحاديث كثيرة ، وقد ذكرنا جملة من ذلك فى كتابنا المسمى بذم الهوى فلا نعيدها بل نذكر هنا جملة فتقول :

إنما يعرف فضل الشىء بثمرته ، ومن ثمرات العقل معرفة الخالق سبحانه وتعالى ، فإنه استدل عليه حتى عرفه ، وعلى صدق الأنبياء حتى علمه ، وحث على طاعة الله وطاعة رسله ، ودبر فى نيل كل صعب حتى ذلك البهائم وعلمه ، صناعة السفن التى بها يتوصل إلى ما حال بيننا وبين البحر واحتال على طير السماء حتى صيدت ، وعينه أبدا تراقب العواقب . وتعمل بمقتضى السلامة فيها والفوز . ويترك العاجل للآجل .

وبه فضل الآدمى على جميع الحيوان الذى فقده ، وبه تأهل الآدمى لخطاب الله سبحانه وتكليفه . وبه يبلغ الإنسان غاية مافى جوهر مثله أن يبلغه من خير الدنيا والآخرة من العلم والعمل ، وكفى بهذه الأشياء فضيلة لا يبعضها . فليكتف بهذه الجملة عن الإطاله .

---

(١) تأثر ابن الجوزى هنا بالحادث المحاسبى فهذه العبارات تكاد تكون اقتباسا منه ( انظر آداب النفوس للمحاسبى ) .

# الباب الثانى

## فى ذم الهوى

الهوى ميل الطبع لما يلائمه ، فلا يذم هذا المقدار إذا كان المطلوب مباحا، وإنما يذم الإفراط فيه ، فمن أطلق ذم الهوى فلأن الغالب فيه مالا يحل ، أو يتأول المباح بإفراطه .

وأعلم أن النفس منها جزء عقلى فضيلة الحكمة ، ورذيلته الجهل ، وجزء شهوانى فضيلته العفة ، ورذيلته إطلاق الهوى .

فالصبر عن الرذائل فضيلة للنفس ، بها يحتمل الإنسان الخير والشر ، فمن قل صبره فحكم هواه على عقله فقد صير المتبوع تابعا ، والمأموم إماما ، فلاجرم أن جميع مايرومه ينعكس عليه ، فإنه يتأذى من حيث قدر النفع ويحزن من حيث أراد الفرح .

وإنما فضل الآدمى على الحيوان البهيمى بالعقل الذى أمر بكف الهوى، فإذا لم يقبل قوله ، وحكم الهوى كان الحيوان البهيمى أعذر من الآدمى .

ويدل على فضل خلاف الهوى تقديم كلب الصيد وإكرامه على أبناء جنسه ، وذلك لمكان مخالفته للهوى فى جنس[1] ماصاده على صاحبه دون أكله خوفا من عقوبته ، أو شكرا لنعمته .

واعلم أن الهوى فى ضرب المثل كالماء الجارى الجديد الجرى[2] ينحدر بسفينة الطبائع . والعقل مراد ، فإن عقل المراد وتوانى مر الماء بالسفينة .

---

(١) فى الأصل من جنس .
(٢) فى الأصل الجرية .

وينبغى للعاقل أن يعلم أن مقاساة الشدة فى خلاف الهوى أسهل مما يلقى فى موافقته ، وأقل مايلقى موافقوا الهوى : أنهم يصيرون إلى حالة لايلتذون به فيها، ثم لايصبرون عنه، لأنه يصير بالإدمان عادة كمد منى الجماع ، وشراب الخمر ، والتفكر فى هذه الأشياء يهون على الإنسان رفض الهوى .

ومما يهون الهوى : أن يتفكر الإنسان فى نفسه ، فيعلم أنه لم يخلق لموافقة الهوى ، فإن الجمل يأكل أكثر منه والعصفور يسافد[1] أكثر ، والبهائم مطلقة فى محبوباتها من غير حصر ولا يشوبها غم تقص خط الآدمى من الشهوات ، ثم شيبت بالنقص علم أنه لم يخلق لذلك .

وقد بينت لك أن مذموم الهوى ماأفرط ، وهو الذى يحكم عليه العقل بالخطأ ، أما ماتهواه مما تضطر إلى تناوله ويعين به النفس على إصلاح حالها فممدوح لامذموم .

# البَابُ الثَالِثُ

## فى الفرق بين مايرى العقل ومايرى الهوى

أعلم أن الهوى يدعو إلى اللذة من غير فكر فى عاقبتها ، وقد يعلم أن تلك اللذة تجلب ألما يربو عليها وتمنع صاحبها من نيل أمثالها : والهوى معرض عن النظر فى ذلك . وتلك حالة البهائم ، إلا أن البهائم أعذر ، لأنها لاترى العافية ولاينبغى للعاقل أن ينزل عن رتبة بها شرف وأرتفع إلى مقام عظيم .

فأما العقل فإنه يراقب العواقب وينظر فى المصالح فمثله كمثل الرجل الحازم والطبيب الناصح ، ومثل الهوى كمثل الصبى الجاهل ، والمريض الشره .

---

(١) أى يجامع .

فينبغى للبيب إذا اختلف عقله وهواه وقد علم أن العقل عالم ناصح ، أن يستشيره وأن يسير على مضض مايأمر به ، ويكفيه فى إيثار العقل علم يفضله ، فإن دام زيادة دليل على صحة قوله فليتأمل عواقب مايحبيه الهوى على أربابه من هتك الأستار والفضيحة بين الخلق ، وحط المنزلة وفوت الفضائل وهل وكس ذو جاه ، أوذل عزيز أوصيد طائر إلا بموافقة الهوى .

ومما يوضح له الدليل أن يقدر بلوغ غرضه قبل نيله ، ثم ينظر فى حاله بعد انقضاء لذته ، وما اكتسبه ، وما يزين له الالتذاذ بالجناية ، فيعلم حينئذ أنه قد خسر أضعاف ماربح وقد أنشدوا فى ذلك :

كم لذة مستفزة فرحا قد انجلت عن غموم آفات
كم شهوات سلبن صاحبها ثوب الديانات والمروءات

وأعلم أن الإنسان إذا وافق هواه — وإن لم يضره — وجد من نفسه ذلا لمكان أنه مغلوب ، وإذا قهر هواه وجد فى نفسه عزا لأجل أنه غالب .

ثم أنت ترى الناس إذا شاهدوا زاهداً تعجبوا منه ، وقبلوا يده ، وماذاك إلا لأنه قوى على ترك ماضعفوا عنه من مخالفة الهوى .

# الباب الرابع

## فى دفع العشق عن النفس

هذا مرض وقد تلف به خلق كثير ، تارة فى أبدانهم ، وتارة فى أديانهم وتارة فيهما ، ولأجله وضعت كتاب ذم الهوى .

وقد ذكرت هناك من الأدوية مايكفى ويشفى إلا أنى أذكر هنا جملة لئلا يخلو الكتاب مما قد رسم فيه فأقول :

من احتمى عن التخليط ، بغض البصر ، وكف النظر سلم من هذا المرض ، فإذا لم يحتم حصل عنده المرض بمقدار تخليطه .

فإن تدارك الأمر قبل استحكامه فربما نفع الدواء ، وإن تركه إلى أن يستحكم لم ينفعه علاج .

وأعلم أن مجرد النظر إلى المستحسن لا يكاد يوجب العشق ، وإنما يزداد به تحصيله ، ويعينه قوة الطمع ، فيساعده الشباب والشهوة .

فمن أراد العلاج فليبادر به قبل أن يستحكم المرض ، وذلك بقطع السبب والصبر فى ذلك على المضض ، فإن اليأس أعظم دواء . وأقوى معين على ذلك خوف الله تعالى ، وزجر النفس الأبية عن مواقف الذل ، وتذكر عيوب المحبوب الباطنة . كما قال ابن مسعود . « إذا أعجبت أحدكم امرأة فليذكر مثالبها » .

ومتى كان المحبوب مقدورا عليه مباحا كان الجمع بينهما أعظم الدواء ، وإلا فالنكاح فى الجملة يخفف المرض ، واستجداد الزوجات ، واستحداث الجوارى ، وطول السفر ، والتفكر فى خيانة المحبوب وتجنيه ، والنظر فى كتب الزهد ، وذكر الموت ، وعيادة المرضى ، وزيارة القبور .

ثم يتفكر فى وجود غرضه وانقضائه ، وسآمته مع الزمان ، وتغير الخلق ، وليتصفح العبر فى نفسه وغيره ، فلعل غيره يأخذ بيده فينتاشه [1] من هذه الهوة ، ويحتذ به من هذه الورطة . كما روينا أن رجلا كان يهوى غلاما فنظر يوما فى المرآة فرأى طاقة شيب فهجر الغلام ، فكتب الغلام إليه .

مالى جفيت وكنت لا أجفى ودلائل الهجران لا تخفى
وأراك تشربنى فتمزجنى ولقد عهدتك شاربى صرف

---

(١) أى ينقذه .

فكتب إليه فى الجواب .

أتصابى مع الشمط[1] سمتنى خطة الشطط
لا تلمنى على جفا ى فحسبى بما فرط
أنا رهن بما جنيـ ت فذرنى من الغلط
قد رأينا أبا الخلا ئق فى زلة هبط

# الباب الخامس

## فى دفع الشره

أعلم أن الشره إذا أطلق انصرف إلى موافقة الهوى فى المطاعم ، وكم قد أوجبت من أمر فزالت بأربابها إلى التلف ، وهى علة تتولد عن قوة النفس الشهوانية .

قال الحارث بن كلدة « الذى قتل البرية ، وأهلك السباع فى البريه إدخال الطعام على الطعام » . وقال غيره : « لو قيل لأهل القبور : ما كان سبب آجالكم ؟ لقالوا : التخم » . وساق بسنده الحسن قال : قيل لسمرة : إن أبنك لم ينم الليلة . قال : أبشما ؟ قيل : بشما . قال : لومات لم أصل عليه[2] .

البشمه فى الطعام . والبغر فى الماء . ( وهما الامتلاء الشديد ) .

قال رجل لرجل يعيره : مات ، أبوك بشما ، وماتت أمك بغرا .

وعن عقبة الراسبى قال : دخلت على الحسن فوافقته يتغذى . فقال : هلم

---

(١) يعنى الشيب .
(٢) روى المناوى هذا القول للشبلى فى الكواكب الدرية .

فقلت : أكلت حتى لا أستطيع أن آكل . قال سبحان الله !! وهل يأكل المسلم حتى لايستطيع أن يأكل [1] .

فصل :

وأعلم أن العاقل يجب أن يأكل ليبقى ، والجاهل يؤثر أن يبقى ليأكل ، ورب لقمة منعت لقمات ، وكانت سبب الهلاك ، وقد بينت عيوب الشبع فى كتاب « لقط المنافع » ، وإنما المقصود هنا زجر النفس الشرهه ، لتكف الكف عما يؤذيها ، وفيما ابتدأت به من فضل العقل وذم الهوى مايكفى فى الامتناع عن كل رذيلة ، وهجر مايخاف عواقبه .

فصل :

وقد يكون الشره فى الجماع ، وقد بينت فى كتاب « اللقط » أنه كلما كثر استعماله امتنعت أوعية المنى من الدر ، فانجذب إليها غذاء ليس بنضيج ، واستلبت قوى الأصول ، وهى الدماغ والقلب ، والكبد ، فتبرد الحرارة الغريزية ، ويسرع لذلك الهلاك . ثم إن صورة الوطء تنبو عنها النفوس الشريفة، إلا أن يدفع به شر محتقن، أو يطلب ولد، فأما أن يصير عادة، ويكون بالتمتع بنفس الفعل ، فتلك مزاحمة البهائم .

فصل :

وقد يقع الشره فى جمع الأموال ، وهو من الجنون البارد إذا زاد على قدر الحاجة ، لأن المال لايراد لنفسه ، وإنما يراد لغيره ، ولا ينكر على من جمع مالا غنى للنفس عنه ، فاستغنى به عن الناس ، وأغنى أولاده ، وبذل بعضه

(١) ورد فى الحديث : « المؤمن يأكل فى معى واحد ، والمنافق يأكل فى سبعه أمعاء .

للمحتاجين ، إلا أنه ينبغى للعاقل بعد حصول المقدار والمتوسط من ذلك ألا يضيع الزمان الشريف ، وألا يخاطر بالروح [1] فى الأسفار وركوب البحار ، وما أحسن قول الشاعر .

ومن ينفق الأيام فى جمع ماله مخافة فقر فالذى فعل الفقر

وكم قد رأينا وسمعنا عن أقوام يقترون على أنفسهم فى الإنفاق، ويركبون مع كبر السن البحار ، فيربحوا بزعمهم ، فهلكوا فى أسفارهم ، وما بلغوا بعض أغراضهم .

وهذا المرض ينبغى أن يداوى بتلمح المقصود من المال ، والموازنة بين المخاطرة بأنفس نفيس وهو النفس والوقت ، فمن شاور عقله فهم المراد، ومن غلبه مرض الحرص هلك فى بيداء الشره، ولا وارث له إلا المطية والرحل .

فصل :

وقد يقع الشره فى فنون مايلتذ به من الأبنية المنقوشه والخيل المسومة ، والملابس الفاخرة ، وغير ذلك ، وهذا مرض أصله موافقة الهوى .

وعلاجه أن يعلم أن الحساب على كسب الحلال شديد عسير ، والتبذير ممنوع منه ، وأن الله تعالى لاينظر إلى من جر ثوبه خيلاء ، وأن كل شىء يؤجر المؤمن عليه إلا البناء .

فالعاقل من نظر فى مقدار إقامته ، وتلمح بيت نقلته ، فحينئذ يقنع من الثياب بما يواريه ، ومن البنيان بما يواريه ، وفى الحديث أن نوحا عليه السلام لبث فى بيت شعر ألف سنة إلا خمسين عاما، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما وضع لبنة على لبنة ، وكان فى ثوب عمر اثنا عشرة رقعه .

---

(١) فى الأصل : وأن يخاطر .

فهؤلاء فهموا أن الدنيا مفازة ، والمفازة لاتتوطن ، فمن فاته العلم بهذا مرض مرض الشره ، وعلاجه النظر فى العـــلم ، والتامل فى سير العلماء والعقلاء .

# الباب السادس

## فى رفض رياسة الدنيا

أعلم أن النفس تحب الرفعة والعلو على جنسها ، فتؤثر الإمارة والولاية لمكان الأمر والنهى ، وهذا وإن كان مطلوبا إلا أن فيه مخاطرات ، أقلها العزل بعد الولاية ، وأعظمها الجور فى الحكومة ، وأوسطها تضييع الزمان إذا لم تصح للوالى نية .

وينبغى لمن أحب الولاية أن يعلم أنه إنما يتخيلها [1] عظيمة مالم ينلها ، فإذا نالها هانت عنده ، وسما إلى غيرها ، فاللذة تزول ، والأوزار تبقى ، والمخاطرة بالنفس والدين . فالتفكر فى هذه الأشياء علاج ، وروى عن أبى أمامة عن النبى صلى الله عليه وسلم : « مامن رجل يل أمر عشرة فما فوق ذلك إلا أتى الله عز وجل يوم القيامة مغلولة يده إلى عنقه ، فكه بره ، أو أوبقه إثمه ، أولها ملامة ، وأوسطها ندامة ، وآخرها خزى يوم القيامة » .

وعن أبى هريرة مرفوعا : « ويل للأمراء ، ويل للعرفاء ، ويل للأمناء ليتمنين أقوام يوم القيامة أن ذوائبهم كانت معلقة بالثريا يتذبذبون بين السماء والأرض ولم يكونوا عملوا على شىء .

وفى أفراد مسلم من حديث أبى ذر قال: قلت يارسول الله ، ألاتستعملنى .

---

(١) فى الأصل . يتخايلها .

قال : فضرب بيده على منكبي ثم قال : ياأباذر ، إنك ضعيف ، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزى وندامة ، إلا من أخذها بحقها ، وأدى الذى عليه لها » . وفى لفظ آخر : « ياأباذر إنى أحب لك ماأجد لنفسى ، لاتأمرن على اثنين ، ولاتولين على مال يتيم .

# الباب السابع

## فى دفع البخل

أعلم أن مجرد الإمساك للمال لايسمى بخلا ، لأن الإنسان قد يمسك فاضل المال لحاجته ، ولحوادث دهره ، ولأجل عياله وأقاربه (١) ، وهذا كله من باب الحزم فلايذم ، وقد يجد قوم قوة فى النفس بحفظ المال ، وإنما يقع اسم البخل على مانع الحق الواجب .

قال ابن عمر : « من أدى الزكاة فليس بخيل » ، ثم يقال لمن منع مالا يضره، ولا يكاد يؤثر فيه ، مما ينتفع به الناس بخيل ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « وأى داء أدوأ من البخل » .

قال أبو محمد الرامهرمزى : إنما يشبه البخل بالداء لأنه يفسد الخلق ، ويدفع السؤدد ، ويكسب سوء الثناء والمذمة ، كما أن الداء يضعف الجسم ويبطل الشهوة ، ويغير اللون ، وقد قالت الحكماء : « الكريم حر لأنه يملك ماله ، والبخيل لايستحق اسم الحرية لأن ماله يملكه » .

وعن عبد الله بن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إياكم والشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، أمرهم بالقطيعة فقطعوا ، وأمرهم بالبخل فبخلوا ، وأمرهم بالفجور ففجروا .

---

(١) فى الأصل : ولقرابته .

وقال عليه السلام: « خصلتان لاتجتمعان فى مؤمن: البخل وسوء الخلق » .

قال الخطابى : الشح أبلغ من البخل ، فهو بمنزلة الجنس ، والبخل بمنزلة النوع . وقال بعضهم : البخل أن يضن بماله ، والشح أن يبخل بماله ومعروفه وقال بشر الحافى : لقاء البخلاء كرب على قلب المؤمن .

وعلاج البخل أن يتفكر فيرى أن فقراء بنى آدم إخوانه ، وقد أوثر عليهم ، وأحوجوا إليه ، فليجعل شكر المنعم مواساة الإخوان ، ولينظر فى شرف الكرم ، وليعلم أنه يسترق الأحرار إذا أسدى إليهم معروفا ، وينهب عرضه الأشرار إن بخل، وليتيقن أنه سيترك مافى يديه ذميما، فليخرج منه قبل أن يخرج عنه .

## الباب الثامن

## فى النهى عن التبذير

التبذير مما يأمر به الهوى ، وينهى عنه العقل ، وأحسن الأدب فى هذا الباب تأديب الحق سبحانه وتعالى حين قال « ولا تبذر تبذيرا » .

وأعلم أن الإنسان قد يعطى رزق شهر فى يوم ، فإذا بذر فيه بقى شهرا يعانى البلاء ، وإذا دبر منه عاش شهرا أطيب العيش .

وعلاج مرض التبذير النظر فى العواقب ، والحذر مما يجوز كونه من الحاجة إلى الناس والفقر ، فذلك يكف كف التبذير .

## البَابُ التَاسِعُ

## فى بيان مقدار الاكتساب والإنفاق

وينبغى للعاقل أن يكتسب أكثر مما يحتاج إليه، ويقتنى مايعلم أنه لو حدثت به حادثة كان فى المقتنى عوض عما ذهب ، ولو عرض له مانع من الاكتساب قام المقتنى بحاجته بقية عمره ، ولو جاءه أولاده ، أو احتاج إلى فضل زوجة أو خادم ، أو احتاج ولده إلى مثل ذلك كان فى كسبه مايكفيه .

وفى الجملة ينبغى أن تكون النفقة أقل من الكسب ، ليقتنى من الفضل مايكون معدا لحادثة لاتؤمن ، وهذا مايأمر به العقل الناظر فى العواقب ، ولايبالى به الهوى الناظر إلى الحالة الحاضرة .

وعن أبى الدرداء مرفوعا « من فقه الرجل بعد النظر فى معيشته » . وقد روى موقوفا .

## البَابُ العَاشِرُ

## فى ذم الكذب

هذا من العوارض التى يدعو إليها الهوى ، وذلك أن الإنسان لمحبته الرياسة يؤثر أن يكون مخبرا معلما لعلمه بفضل المخبِر عن المخبَر .

وعلاج هذا المرض أن يعلم عقوبة الله للكاذب ، وأن يتيقن أنه مع استدامة الكذب لابد أن يطلع على حاله فينقص نقصا لايتلافى ، فيذهب حياؤه وخجله واحتقار الناس له وتكذيبهم إياه فى الصدق ، وقلة ثقتهم به على ما اكتذبه .

وعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا » . وقال ابن مسعود : « كل الخلال يطبع عليها المؤمن إلا الخيانة والكذب » .

## الباب الحادى عشر

## فى دفع الحسد

الحسد تمنى زوال نعمة المحسود وإن لم يصر للحاسد مثلها ، وسبب ذلك حب الميزة على الجنس ، وكراهة المساواة ، فإذا حصلت للغير نعمة تميز بها تألم هذا الإنسان لتلك الميزة ، أو بمساواته له فيها ، فلا يزيل ذلك الألم إلا زوال تلك النعمة عن المحسود ، وهذا أمر لا يكاد أحد ينفك منه فى باطنه ، ولا يأثم الإنسان بوجود ذلك ، بل يأثم بالتمنى لزوال النعمة عن أخيه المسلم.

وأعلم أن الحسد يوجب طول السهر وقلة الغذاء ، ورداءة اللون ، وفساد المزاج ، ودوام الكمد . قيل لأعرابى عاش مائة وعشرين سنة : ما أطول عمرك ؟ فقال : تركت الحسد فبقيت .

وأعلم أنه لا يقع الحسد إلا فى أمور الدنيا ، فإنك لا ترى أحدا يحسد قوام الليل ولا صوام النهار ، ولا العلماء على العلم ، بل على الصيت والذكر .

وعلاج هذا المرض : أن يعلم الإنسان أولا أن الأقدار السابقة لابد أن تجرى ، وأن الاحتيال فى صرف المقدور غير ممكن ، وأن القسام حكيم ، ثم هو مالك يعطى ويحرم ، فهو الذى خلق الطرف السابق ، والكودن [1] وكأن الحاسد مضاد لإرادة المعطى سبحانه . وقال بعض الحكماء .

---

(١) هو البرذون الردىء .

ألا قل لمن كان لى حاسدا أتدرى على من أسأت الأدب
أسأت على الله فى فعـــله لأنك لم ترض لى ماوهب
فجازاك عنى بأن زادنى وسد عليك وجوه الطلب

ثم إن المحسود لم ينقص الحاسد من رزقه ، ولم يأخذ شيئا من يده ، فقصد الحاسد زوال ما أعطيه المحسود ظلم محض .

ثم ينبغى للحاسد أن ينظر فى حال المحسود ، فإن كان إنما نال الدنيا فقط فهذا ينبغى أن يرحم ، لا أن يحسد ، لأن الذى ناله فى الغالب عليه لا له ، وهل فضول الدنيا إلا هموم . كما قال المتنبي .

ذكر الفتى عمره الثانى وحاجته مافاته وفضول العيش أشغال

وبيان هذا : أن الكثير المال شديد الخوف عليه ، والكثير الجوارى شديد الحذر عليهن ، قوى الاهتمام بهن أولهن ، والوالى خائف من العزل ، ثم ليعلم أن النعم كثيرة الأكدار ، ثم هى قلية اللبث ، والمصائب تردفها ، فإن صاحب النعمة ينتظر زوالها ، أو زواله عنها ، ثم ليوقن بأن مايحسده عليه المحسود ليس هو عند المحسود كما هو عند الحاسد ، فإن الناس يظنون فى أرباب المناصب أنهم فى غاية اللذة ، ولا يدرون أن الإنسان يسمو إلى أمر ، فإذا ناله برد عنده وصار عادة له ، فهو يسمو إلى ما هو ، أعلى منه ، وهذا الحاسد يرى الأمر بعين الجد والغبطة . وليعلم الحاسد أنه لو عاقبه المحسود ناله بأشد من الأذى الذى هو فيه .

فإن لم ينتفع بشىء من هذا العلاج فليسع فى التسبب إلى مثل ما نال المحسود ، فقد قال بعض السلف : لقد خشيت الهم حتى فى الحسد ، فإن الرجل إذا حسد جاره على الغنى سافر وتاجر ليصير مثله ، أو على العلم سهر وتعلم ، فقد صار الناس يحبون البطالة ، ثم يذمون الواصل إلى المعالى ، وما أحسن ما قال الرضى .

دنبي إلى البهم الكوادن[١] أننى
الطرف المفهم والأغر الأقرح[٢]
يولونى خزر العيون لأننى
غلست[٣] فى طلب العلا وتصبحوا
وجذبت بالطول[٤] الذى لم يجذبوا
ومنحت بالغرب الذى لم يمتحوا[٥]
لو لم تكن لى فى العيون مهابة
لم يطعن الأعداء فى ويقدحوا

فإن لم ينل ما نال المحسود فلتكن مجاهدته إمساك لسانه عن ثلبه، وحبس مافى قلبه .

فصل :

وقد جاءت الأحاديث بذم الحسد ، فعن الزبير بن العوام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء ، والبغضاء هى الحالقة ، حالقة الدين لاحالقة الشعر ، والذى نفس محمد بيده لاتؤمنوا حتى تحابوا ، أفلا أنبئكم بشىء إذا فعلتموه تحاببتم : أفشوا السلام بينكم » .

وقال عمر بن ميمون : رأى النبى صلى الله عليه وسلم رجلا عن العرش ،

---

(١) أى المتخلفين .
(٢) أى السابق الظاهر ذو القريحة .
(٣) يعنى بكرت .
(٤) يعنى جذبت المعالى بحبل لم يستطيعوه .
(٥) يعنى استقيت بالدلو العظيم لم يستقوا به .

فغبطه بمكانه ، فسأل عنه ، فقال نجرك بعمله : كان لايحسد الناس على ما آتاهم آمن فضله ، ولا عيشى بالنميمة ، ولا يعق والديه » .

وعن سالم عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لاحسد إلا فى اثنتين . رجل آتاه الله عزوجل القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار ، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقة فى الحق آناء الليل والنهار . أخرج فى الصحيحين.

فإن قيل : إذا ما كان الحسد مذموما فكيف مدحه هنا ؟ فالجواب : أن المراد بهذا الغبطة ، فسماها بالحسد تجاوزا . والغبطة أن يتمنى مثل ما للإنسان من غير حب زواله عنه .

## الباب الثانى عشر

## فى دفع الحقد

الحقد بقاء أثر القبيح من المحقود فى نفس الحاقد ، ولعمرى إن العقل يقضى ببقاء أثر القبيح كما يقضى ببقاء أثر الجميل .

وعن عبد الله بن كعب بن مالك قال : سمعت كعب بن مالك يحدث فى حديثه حين تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكر القصة ونزول عقوبته . قال : فدخلت المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس حوله الناس ، فقام إلى طلحة بن عبيدالله يهرول ، حتى صافحنى وهنأنى ، والله ماقام إلى رجل من المهاجرين غيره ، قال : فكان كعب لاينساها لطلحة (١) .

فإذا ثبت أن الجميل لاينسى ، فالقبيح كذلك . إلا أنه يستحب الاجتهاد فى إزالة أثر القبيح من القلب .

---

(١) كعب أحد الثلاثة الذين خلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك ، وأنزل الله تعالى توبتهم .

وعلاج ذلك أن يكون بالعفو والصفح . وللعفو محلان : أحدهما رؤية الثواب للعافى ، والثانى شكر من جعل هذا فى مرتبة من يعفو ، وذلك فى منزلة من يهفو .

ومن كمال العفو حصول الرضا ، وذلك يمحو مافى القلب ، وهنا علاج أدق من هذا ، وهو أن يرى الإنسان أن الذى سلط عليه لأذاه إنما هو بذنب منه . أوالتكفير خطأ ، أولرفع درجة ، أولاختباره فى صبره ، وثم علاج أدق من هذا ، وهو : أن يرى الأشياء من المقدر .

## الباب الثالث عشر

### فى دفع الغضب

لقد بينا أن الغضب إنما ركب فى طبع الآدمى ليحثه على دفع الأذى عنه، والانتقام من المؤذى له ، وإنما المذموم إفراطه ، فإنه حينئذ يزيل التماسك ، ويخرج عن الاعتدال ، فيحمل على تجاوز الصواب ، وربما كانت مكانته فى الغضبان أكثر من المغضوب عليه .

والغضب حرارة تنتشر عند وجود ما يغضب ، فيغلى عندها دم اللذات طلب للانتقام ، وربما أثر الحمى وسببه فى الغالب الكبر ، فإن الإنسان لا يغضب إلا على من هو أعلى منه .

وعلاجه أولا أن يتثبت الغضبان ويغير حاله ، فإن كان ناطقا سكت ، وإن كان قائما قعد ، وإن كان قاعدا اضطجع ليسكن تلك الفورة ، وإن خرج فى الحال عن المكان وبعد عن المغضوب عليه كان أصلح .

ثم يتفكر فى فضل كظم الغيظ ، فقد مدح الله سبحانه القوم فقال : « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس » فإن رآى ماسلط عليه بذنب أوشاهد قدر المسلط على ماذكرنا فى الحقد هان الأمر .

فصل :

وقد جاء فى هذا أحاديث كثيرة ، فذكر بسنده إلى أبى هريرة قال : أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل فقال : أوصنى ، فقال:لاتغضب ، فردد مرارا فقال : لاتغضب . رواه البخارى .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب » ومن حديث سلمان بن صرد قال : كنت جالسا مع النبي صلى الله عليه وسلم ورجلان يستبان،وأحدهما قد أحمر وجهه ، وانتفخت أوداجه . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه مايجد ، لو قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، لذهب عنه ما يجده ، قالوا له : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : تعوذ بالله من الشيطان الرجيم . قال : أوبى جنون ؟

وروى أبو داود فى سننه من حديث أبى ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس ، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع » . قال الخطابى : القائم متهيء للحركة والبطش ، والقاعد دونه ، فى هذا المعنى .

وفى حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : إذا غضب أحدكم فليسكت ، وقال الأحنف : ما اعترض التثبت فى الغضب إلا وهى .

فصل :

ومتى لم يسكن الغضبان عند شدة فورته لم يؤمن أن تبدر منه نكاية يندم عليها . إما فى نفسه أو فى المغضوب عليه فكم ممن غضب فقتل وجرح ، أوكسر عضو ولده ، ثم بقى الدهر نادما على مافعل ، ومنهم من ينكأ فى نفسه . فإن رجلا غضب مرة فصاح ، فنفث الدم فى الحال ، وأدى به الأمر إلى

الهلاك فمات ، ولكم رجل رجلا فانكسرت أصابع اللاكم ، ولم يستضر الملكوم .

ومن العلاج : أن يتصور الغضبان حاله عند الغضب ، ثم يتصور ماله عند السكون ، فحينئذ يعلم أن حالة الغضب حالة جنون ، وخروج عن مقتضى العقل ، ومتى لم ينثن عزم الغضبان عن ضرب المغضوب عليه فاستقر وغير ذلك ، ووعد نفسه بالفعل بشرط التثبت ، فإذا حصل التثبت رآى قبح ما عزم عليه فترك .

فصل :

وقد كان السلف إذا غضبوا غفروا وصفحوا طلبا لفضيلة العفو ، وكظم الغيظ ، ومنهم من يرى السبب فى إغضابه ذنوب نفسه ، ومنهم من يرى أنه مختبر ، إلى غير ذلك مما ذكرناه فى باب الحقد .

وفى بعض كتب الله تعالى : « يا ابن آدم أذكرنى إذا غضبت ، أذكرك إذا عصيت ، فلا أمحقك مع من أمحق ، وإذا ظلمت فارض بنصرتى ، فإن نصرتى خير لك من نصرتك لنفسك .

وقال مورق : « وما تكلمت كلمة فى الغضب إلا ندمت عليها فى الرضا » ، وكان ابن عون لا يغضب ، فإذا أغضبه الرجل قال : بارك الله فيك .

فصل :

ولا ينبغى للغضبان على الشخص أن يعاقبه فى حال غضبه ، وإن كان مستحقا للعقوبة ، بل يمهل حتى يسكن الغضب ، لتكون العقوبة بمقدار الإساءة لا بمقدار الغضب .

أتى عمر بن عبد العزيز برجل كان واجدا عليه ، فقال : لولا أنى غضبان لضربتك . ثم خلى سبيله .

# الباب الرابع عشر

## فى دفع الكبر

الكبر تعظيم شأن النفس ، واحتقار الغير ، وذلك يكون بسبب الترفع على من هو دونه ، إما فى النسب ، أو المال أو العلم أو العبادة ، أو غير ذلك .

وعلامة الكبر : الأنفة ممن يتكبر عليه ، والاختيال والفخر ، ومحبة التعظيم من الناس له .

وعلاج ذلك نوعان : جملى ، وتفصيلى ، أما الجملى فنوعان : علمى وعملى ، فالعلمى فى الأدلة السمعية والفعلية على رذائل الكبر ، وأما العملى فصحبة المتواضعين وسماع أخبارهم . وأما التفصيلى فأن ينظر إلى رذائل النفس ، ويعلم أن مايتكبر به إن كان مالا فهو مأخوذ منه عن قريب ، والفضل إنما يكون فى الغنى عن الشىء لا به ، لأن الغنى بالشىء فقير إليه ، وإن كان علما فقد سبقه به خلق كثير أعلم منه ، ثم علمه ينهاه عن حالته ، فهو حجة عليه ، وكذلك إن كان عملا ، ثم رؤيته للعمل بعين التمام نقيض .

فصل :

عن أبى سلمة قال : التقى عبد الله بن عمرو وابن عمر على المروة فنزلا فتحدثا ، ثم مضى عبد الله بن عمرو ، وقعد ابن عمر يبكى ، فقيل له : مايبكيك؟ فقال : هذا - يعنى عبد الله بن عمرو - زعم أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر كبه الله تعالى فى النار على وجهه » .

وعن إياس بن مسلمة عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يزال الرجل يعجب بنفسه حتى يكتب من الجبارين حتى يصيبه ما أصابهم » .

وفى أفراد مسلم من حديث ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لايدخل الجنة من كان فى قلبه : مثقال ذرة من كبر » فقال الرجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة ، قال : « إن الله جميل يحب الجمال . الكبر بطر الحق وغمط الناس » .

وفى أفراده من حديث الأغر ، عن أبى هريرة وأبى سعيد قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله عزوجل: « العز إزادى والكبر ردائى فمن نازعنى فيهما عذبته » . قال الخطابى : ومعنى هذا الكلام أن الكبرياء والعظمة صفتان اختص بهما لا يشركه فيهما أحد ، ولا ينبغى لمخلوق أن يتعاطاهما ، لأن صفة المخلوق التواضع والتذلل وضرب الرداء والإزار مثلا . يقول والله أعلم : كما لايشرك الإنسان فى ردائه وإزاره أحدا فكذلك لا يشركه فى الكبرياء والعظمة مخلوق .

قال : وقوله : لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر يتأول على وجهين : أحدهما أنه كبر الكفر . والثانى أنه ينزع الكبر من قلب أهله قبل دخولهم الجنة .

وقوله : وغمط الناس أنه أزرى بهم ، واستخف بهم ويقال : غمط وغمص .

وعن الحسن قال : تراهم يهدرون عند هدير العمل أنت والله أنت والله ، وتراه مقنعا ساكتا يحسب حميق أنه مثل ما يقال له . قال : وترى أحدهم يتخذل فى مشيته يسحب عظامه عظما عظما لا يمشى صلبا .

# الباب الخامس عشر

## فى دفع العجب

العجب إنما ينشأ من حب النفس ، والمحبوب لا يرى زلته ، ولا يعتقد نقصه ، بل يرى بعين الكمال . ومن بلايا العجب أنه يؤدى إلى بغض الذى به وقع العجب ، لأن المعجب بنفسه فى أمر الدنيا لا يتزيد منه ، ثم يترقى أن يعيب غيره فى الاعتقاد . والنقص فى سواه .

وعلاج العجب البحث عن عيوب النفس على ما بينا آنفا ، وسؤال الغير عن قبائحها ومعايبهـــا ، والنظر فى أحوال من سبقه إلى ما أعجب به وبرز عليه .

فإن أعجب العالم بعلمه فلينظر فى سير العلماء أو بزهده فلينظر فى سير الزهاد . فحينئذ لا يعجب بنفسه ، فقد كان الإمام أحمد يحفظ ألف ألف حديث ، وكان كهمس بن الحسن يختم كل يوم وليلة ثلاث مرات ، وصلى سليمان التيمى الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة ، ومن تأمل سير القوم رأى نفسه بالإضافة إليهم كمن معه دينار يعجب به ، ولا يدرى أن فى الناس من يملك ألوفا كثيرة .

وقال إبراهيم الخواص : العجب يمنع من معرفة قدر النفس . وقال بعض الحكماء : عجب المرء بنفسه أحد حساد عقله ، وما أضر العجب بالمجلس .

# الباب السادس عشر

## فى دفع الرياء

من عرف الله تعالى حق معرفته أخلص له عمله ، وإنما يقع الرياء من قلة المعرفة له ، وتعظيم قدر الخلق ، وإيثار النفس مدحهم وحمدهم .

والناس فى هذا المرض متفاوتون . فمنهم من لا يقصد بعمله إلا مدح

الخلق له ، ومنهم من يريد الله بعمله، ويريد مدح المخلوقين، ومنهم من لا يقصد الخلق أصلا . فإذا اطلعوا على حسن العمل وجودته ليمدح . فهذه آفة دخلت دخلت على عمل صحيح

وعلاج هذا المرض فى الجملة : تحقيق معرفة الله سبحانه ، فمن عرفه أفرد القصد له ، ولم ير غيره ، وأقام نفسه فى مقام العابد الذليل للمعبود ، لا فى مقام معبود ممدوح ، ورآى أن حصول الأجر إنما يكون بخالص العمل ، فاحترس من تعب ضائع .

والعقوبة على الرياء شديدة . فمن حديث عمر : « إنما الأعمال بالنية وإنما لكل امرىء مانوى » وعن أبى موسى قال : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله أرأيت أن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء ، فأى ذلك فى سبيل الله ، قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » ، متفق عليه .

وعن أبى هريرة ، قال له قائل أيها الشيخ حدثنا حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أول الناس يقضى فيه الله تعالى يوم القيامة ثلاثة . رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال: ماعملت فيها . قال : قاتلت فيك حتى قتلت : قال: كذبت ، ولكنك قاتلت ليقال : هو جرىء . فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها . فقال : ماعملت فيها . قال : تعلمت فيك العلم وعلمته ، وقرأت القرآن ، فقال : كذبت ، ولكنك تعلمت ليقال هو عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال : ماعملت فيها ؟ قال : ماتركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك . قال : كذبت ولكنك فعلت ليقال : هو

جواد ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار » . انفرد باخراجه مسلم .

وعن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم يرويه عن ربه عزوجل . قال : « أنا خير الشركاء فمن عمل عملا فأشرك فيه غيرى ، فأنا برىء منه ، وهو للذى أشرك » أخرجه مسلم .

وعن محمود بن لبيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أخوف ماأخاف عليكم الشرك الأصغر . قالوا : وما الشرك الأصغر يارسول الله ، قال : الرياء . يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جازى الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءونهم فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء .

وعن أبى حازم قال : لايحسن عبد فيما بينه وبين العباد ، ولايعور فيما بينه وبين الله إلا عور الله مابينه وبين العباد ، ولمصانعة وجه واحد أيسر من مصانعة الوجوه كلها ، إنك إن صانعت هـــذا الوجه مالت إليك الوجوه كلها .

وعن ابن توبة قال : رأيت أبا بكر الآدمى القارىء فى النوم بعد موته، يمد يده فقلت له : مافعل الله بك ؟ فقال : أوقفنى بين يديه ، وقاسيت شدائد وأمورا صعبة ، قلت له : فتلك الليالى والمواقف والقرآن . قال : ماكان شىء أضر على منها ، لأنها كانت للدنيا . فقلت : فإلى أى شىء انتهى أمرك ؟ قال: قال لى تعالى : آليت على نفسى ألا أعذب أبناء الثمانين .

# الباب السابع عشر

## فى دفع فضول الفكر

أعلم أن الفكر يراد لاستدراك فارط ، والنظر فى مصلحة مستقبلة،فإذا كان فيما لايثمرها كان ضررا ، وإذا كثر أنهك البدن .

قال بقراط : ينبغى للعلماء أن يتركوا الفكر وقتا مالئلا ينهك أبدانهم . قلت : ولا يجوز للعاقل أن يخلى نفسه من الفكر ، ولكن يكون فيما يتصور له نيله ، فأما إذا تفكر العامى فى أن يكون خليفة ، وأن ينال علم أبى حنيفه والشافعى ، ثم يجمع بينه وبين زهد بشر ومعروف الكرخى ، ويحصل مثل مال عبد الرحمن بن عوف ، فهذه أفكار تضنى وتردى ، خصوصا إذا قنع بالفكر واستعمل الكسل عن الطلب .

وإنما ينبغى أن يتفكر فيما تصل إليه قدمه ، ويطمع مثله فيه من الخير ، ويتفكر فى جهاده للطبع فى دفع الشر ، فقد تفكر خلق كثير من العصاة فى عواقبهم فتابوا وكثير من الملوك فى عزور الدنيا ، فتزهدوا .

قال ابن عباس : ركعتان مقتصدتان فى تفكر خير من قيام ليلة . والقلب ساه .

وعن أم الدرداء قيل لها : ما كان أفضل عمل أبى الدرداء ؟ قالت : التفكر والاعتبار .

ووقف مالك بن دينار ليلة فى داره على قدمه إلى الفجر فقال : مازال أهل النار يعرضون على بسلاسلهم وأغلالهم إلى الصباح . وقال بعض الحكماء : بترداد الفكر ينجاب العمى .

# الباب الثامن عشر

## فى دفع فضول الحزن

أعلم أن العاقل لايخلو من الحزن ، لأنه يتفكر فى سالف ذنوبه فيحزن على تفريطه ، وفيما قال العلماء والصالحون فيحزن لفوتة .

قال مالك بن دينار : إن القلب إذا لم يكن فيه حزن خرب ، كما أن البيب إذا لم يسكن خرب .

وقال إبراهيم بن عيسى : مارأيت أطول حزنا من الحسن ، ومارأيته قط إلا حسبته حديث عهد بمصيبه .

وقال مالك بن دينار : بقدر ماتحزن للدنيا كذلك يخرج هم الآخرة من قلبك .

وإذ قد تبين أن الحزن لايزال ملازما لقلوب المتقين فينبغى أن يتقى إفراطه ، لأن الحزن إنما يكون على الفائت ، وقد عرفنا طريق الاستدراك وجاء فى الحديث : بقية عمر المؤمن لاقيمة له إن لم يستدرك فيه ماقات » . فإن كان المحزون عليه لايمكن استدراكه لم ينفع الحزن ، وإن كان دينا فينبغى أن يقاومه برجاء الفضل والرحمة لتعيدل الحال .

فأما إذا كان الحزن لأجل الدنيا ومافات منها فذلك الحزن المبين ، فليدفعه العاقل عن نفسه .

وأقوى علاجه أن يذكر أنه لايرد فائتا ، وإنما يضم إلى المصيبة مصيبة فتصير اثنتين ، والمصيبة ينبغى أن تخفف عن القلب وتدفع ، فإذا استعمل الحزن والجزع زادت ثقلا .

قال ابن عمر : إذا استأثر الله بشىء فاله عنه ، ثم فى الخلف عن الفائت

مايسلى ؛ فإن عدم مايسلى اجتهد فى صرف ذلك عن قلبه .

وليعلم أن الداعى إلى الحزن الهوى لا العقل ، لأن العقل لايدعو إلى مالا ينفع ، وليعلم أنه سيسلو بعد حين ، فيجتهد فى تقديم المؤخر ، وليرتح مابين الزمانين . ومما يمحق الحزن العلم بأنه لايفيد ، والإيمان بالثواب ، ويذكر من أصابه أكثر من مصيبته .

## الباب التاسع عشر

### فى دفع فضول الهم والغم

الغم يكون للماضى ، والهم للمستقبل ، فمن اغتم لما مضى من ذنوبه نفعه غمه على تفريطه ، لأنه ثياب عليه ، ومن اهتم بعمل خير نفعته همته ، فأما إذا اغتم لمفقود من الدنيا ، فالمفقود لايرجع والغم يؤذى . فكأنه أضاف إلى الأذى أذى كما قلنا ، فى الحزن .

وينبغى للحازم أن يحترز مما يجلب الغم ،وجالبه فقد المحبوب ، فمن كثرت محبوباته كثر غمه ، ومن قللها قل غمه .

فإن قال قائل : إذا لم أجد محبوبا اغتممت . قيل له : صدقت . ولكن لايبلغ غمك بالعدم معشار عشر غم فقد المحبوب ، ألا ترى أن من لاولد له يغتم ، ولكن لا كغم من أصيب بولده ؟

ثم الإنسان كلما طال إلفه لما يحبه واستمتاعه به تمكن من قلبه ، فإذا فقده أحس من مر التألم فى لحظة لفقده بما يزيد على لذات دهره المتقدم . وهذا لأن المحبوب ملائم للنفس كالصحة ، فلا تجد النفس لذتها إلا عند وجودها ، وفقدها مناف لها ، ولذلك تألم بالفقد ما لا تفرح بالوجود ، لأنها ترى وجود المحبوب كالحق الواجب لها .

فينبغى للعاقل تقليل الألفة ، فإن اضطر إلى جوالب الغم فأثمرت الغم فعلاجه فى الأول الإيمان بالقدر ، وأنه لابد مما قضى ، ثم يعلم أن الدنيا موضوعة على الكدر ، فالبناء إلى النقص ، والجمع إلى التفرق ، ومن رام بقاء مالا ينبغى كان كمن رام وجود مالا يوجد فلا ينبغى أن يطلب من الدنيا مالم توضع عليه كما قال الشاعر .

طبعت على كدر وأنت تريدها صفوا من الإيذاء والأكدار

ثم يتصور مانزل به مضاعفا ، فيهون عليه حينئذ ماهو فيه ، ومن عادة الحمال الحازم أن يترك فوق حمله شيئا ثقيلا ، ثم يمشى خطوات ، ثم يولى به فيخف الأمر عنه . ثم ليرتقب زمن العافية هجوم البلاء وليتخيل كما يتصور نزوله نازلا .

فإذا نزل بعض ذلك كان ربحا مثل أن يتصور أن يؤخذ ماناله كله ، فإذا أخذ البعض عد الباقى غنيمة ، ويتصور أن يعمى ، فإذا رمد سهل الأمر ، وكذلك جميع المضرات قال الشاعر .

يمثل ذو اللب فى نفسه مصائبه قبل أن تنزلا
فإن نزلت بغتة لم ترعه لما كان فى نفسه مثلا
وذو الجهل يأمن أيامه وينسى مصارع من قدخلا
فإن بدهته صروف الزمان ببعض مصائبه أعولا
ولو قدم الحزم فى أمره لعلمه الصبر حسن البلاء

قال بعض السلف : رأيت امرأة فتعجبت من نضارتها ، فقلت : هذا وجه ما طرقه حزن . قالت : لاتقل هذا . فما أعرف من ناله ماناني ، كان لى زوج فاشترى أضحية فذبحها وله ولدان فقال الأكبر للأصغر تعال حتى أريك ذبح الشاة ، فذبحه ، فلما طلبناه هرب ، فخرج الأب فى طلبه فهلك ، فقلت : وكيف حزنك ؟ قالت : لو وجدت فى الحزن دركا لاستعملته .

فصل :

وقد يقع الحزن والغم من غلبة السوداء، فيعالج بما يزيل السوداء بالمفرحات. والغم يحمد الدم ، والسرور يلهب الدم حتى تعلو حرارته الغريزية ، وهما جميعا يضران ، وربما قتلا إن لم يعجل تفتيرهما .

## الباب العشرون

### فى دفع فضول الخوف

الخوف والحذر إنما هما للمستقبل ، والحازم من أعد للخوف عدته قبل وقوعه ، ونفى فضول الخوف ممـــا لابد منه ، إذ لاينفعه خوفه منه ، وقد اشتد الخوف من الله تعالى بكثير من الصالحين حتى سألوا الله تعالى تقليل ذلك .

والسبب فى سؤالهم أن الخوف كالسوط فإذا ألح بالسوط على الناقة قلقت ، وإنما ندبه المتوانى .

قال سفيان الثورى لشاب يجالسه : أتحب أن تخشى الله حق خشيته ؟ قال : نعم . قال : أنت أحمق لو خشيته حق خشيته ماأديت الفرائض .

فصل :

ولا ينبغى للعاقل أن يشتد خوفه من نزول المرض فإنه نازل لابد . وخوف مالابد أن يأتى زيادة أذى ، فأما الخوف من الموت والفكر فيه فإنه لاسبيل إلى دفعه عن النفس ، وإنما يخفف الأمر العلم بأنه لابد منه فلا يفيد الحذر إلا زيادة على المحذور .

وكلما تصورت شدته كانت كل تصويرة موتا ، فليصرف الإنسان فكره

عن تصور الموت ليـــكون ميتا مرة واحدة لامرات . ويكون صرف الفكر ربحا .

وليعلم أن الله تعالى قادر على تهوينه إذا شاء ، وليوقن بأن ما بعده أخوف منه ، لأن الموت قنطرة إلى منزل إقامة، وإنما ينبغي للإنسان أن يكثر من ذكر الموت ليعمل له لا لنفس تصويره وتمثيله ، فإن خطر على القلب الحزن على فراق الدنيا فعلاج ذلك أن يعلم أنها ليست بدار لذة ، وإنما لذتها راحة من مؤلم ، ومثل هذا لاينافس فيه .

فإن حزن العاقل على فراق الدنيا لفوت العمل الصالح، فقد كان السلف يحزنون لذلك .

قال معاذ بن جبل عند موته : اللهم إنك تعلم أنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكرى الأنهار وغرس الأشجار ولكن لظمأ الهواجر ، ومكابدة الساعات ، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر .

فصل :

ومن نزل به الموت فليعلم أنها ساعة تحتاج إلى معاناة صعبة ، لأن صورتها ألم محض ، وفراق المحبوبات ، ثم ينضم إلى ذلك هول السكرات ، والخوف من المآل ، ويأتى الشيطان فيسخط العبد على ربه ويقول : أنظر فى أى شىء ألقاك ، وما الذى قضى عليك به ، وكيف يؤلمك ، وها أنت تفارق ولدك وأهلك وتلقى بيد أطباق القرى .

فربما أسخطه على ربه وكره قضاء الله تعالى ، وأنطقه بكلام يتضمن نوع اعتراض ، وربما حسن إليه الجور فى الوصية ، وأن يزوى لبعض الورثة إلى غير ذلك من المحن .

فليتعين حينئذ الحاجة إلى معالجة إبليس ومعالجة النفس ، وقد نقل أبو داود

من حديث أبي اليسر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : « أعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت » .

وفي تلك الساعة يقول الشيطان لأعوانه : إن فاتكم فلان الآن لم تقدروا عليه أبدا . وأما العلاج لتلك الشدائد فينبغي أن نذكر قبله مقدمة ، وهو أن من حفظ الله في صحته حفظه الله في مرضه ومن راقب الله في خطراته حرسه الله عند حركات جوارحه .

وفي حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : أحفظ الله تجده تجاهك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة .

ثم قد سمعت قصة يونس عليه السلام ، كانت له أعمال خير متقدمة انتاشته من شدته فقال تعالى : « فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون » . ولم يكن لفرعون عمل خير ، ولم يجد وقت الشدة متعلقا فقيل له : « آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين » .

وكان عبد الصمد الزاهد يقول عند الموت : سيدي لهذه الساعة خبأتك .

فأما من ضيع في صحته فإنه يضيع في مرضه ، كما نقل عن الصحابة أنه رأى شيخا يطلب من الناس فقال : هذا ضيع أمر الله في صغره فضيعه الله في كبره .

فأما نفس العلاج فينبغي أن تشجع النفس وتقول لها : إنما هي ساعة ثم أرجو كمال الراحة ، كما قال عليه السلام لفاطمة رضي الله عنها : لا كرب على أبيك بعد اليوم ، ودعي أبو بكر بن عباس عند الموت إلى الرجاء فقال : كيف لا أرجوه وقد صمت له ثمانين رمضان .

وقال المعتمر بن سليمان : قال لي أبي : يا بني اقرأ علي أحاديث الرخص لعلي ألقى الله . وأنا حسن الظن به . فينبغي للمؤمن أن يرمي صوت الخوف ، ويحدو الناقة كما قال حادي البادية :

بشرها دليلهـــا وقالا غدا ترين الطلح والجبالا

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال الله عز وجل : أنا عند ظن عبدى بى » متفق عليه .

وعن جابر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لايموت أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله » أخرجه مسلم .

وقال الفضيل بن عياض : « الخوف أفضل من الرجاء . فإذا نزل الموت فالرجاء أفضل » .

قلت : وهذا صحيح لما بينا من أن الخوف سوط يساق به المتوانى ، فإذا كل البعير لم يبق إلا الرفق .

فان قيل : فما تقول فى خوف عمر عند الموت ؟ فالجواب : أنه لما تعلقت به حقوق الرعية خلف من مُطالب طبعه مبنى على الشح . كان يقول : إنما أخاف . ولايتكلم . هذه على أنه كان يتمسك بأذيال الرجاء ، قال ابن عباس لما قال له : أبشر يا أمير المؤمنين ، وليت فعدلت . قال : أتشهد لى بها عند الله يابن عباس ؟

فصل :

فإن اشتد المرض وكرب ، فليحسب ذاك فى باب الأجر ، فقد كانوا يستحبون أن يجهدوا عند الموت .

وعن عمر بن عبد العزيز قال : ما أحب أن تهون على سكرات الموت ، إنه آخر مايكفر به عن المرء المسلم .

فصل :

وينبغى للمريض ما دام ثابت العقل أن يتوب ليلقى الله طاهرا من كل

ذنب ، وأن يجرد وصيته ، وأن يسلم أهله وولده إلى الله تعالى ، فإنه يتولى الصالحين .

فصل :

فإن أزعجه الشيطان بذكر البلى، فليعلم أن البلى واقع على المركب ، والراكب قد رحل ، وليعلم أن الشريفة قد مضت بوصول المؤمن بعد الموت إلى النعيم الدائم ، فمن حقق الإيمان لم يحزن، لأن مآل المؤمن إلى الخير ، ومن لم يتحقق الإيمان فليحزن لفقد التحقق .

وعن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « نسمة المسلم طير تعلق فى شجر الجنة حتى يرجعها الله إلى جسده » . ومقصودنا من هذا الباب أن يكون الخوف من الموت بمقدار لئلا ينهك البدن ، ويبالغ فى الأذى ، وأن يخاف ما بعد الموت فيعمل له .

## الباب الحادى والعشرون

### فى دفع فضول الفرح

إذا اشتد الفرح التهب الدم ، وذلك يضر، وربما قتل إن لم يعدل . وينبغى للإنسان إذا رآى أسباب الفرح أن يدرج نفسه إليه . فإن يوسف عليه السلام لما التقى بأخيه سأله : هل لك من أب ، ولم يزل يلاطفه لئلا يفجأه بالسبب المفرح .

والفرح ينبغى أن يكون بمقدار ليعدل الحزن . فإذا ما أفرط فإنه دليل على الغفلة القوية ، إذ لا وجه للفرح عند العاقل ، فإنما يفرح بالطبع لما يفرح، ثم يذكر مصيره وخوف مآله ، فينمحى ذلك الفرح، ومتى قويت غفلة الفرح

حملت إلى الأشر والبطر ، ومن هذا قوله تعالى : « إن الله لايحب الفرحين » يعنى الأشرين الذين خرجوا بالفرح إلى البطر .

وعلاج شدة الفرح بالفكر فيما سلف من الذنوب ، وفيما بين يدى العبد من الشدائد ، وقد قال الحسن البصرى لولا فضح الموت الدنيا فلم يترك لذى لب فرحا » .

## الباب الثانى والعشرون

### فى دفع الكسل

الموجب للكسل حب الراحة ، وإيثار البطالة ، وصعوبة المشاق ، وفى الصحيحين من حديث أنس بن مالك أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يكثر أن يقول : « اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل » ، وفى أفراد مسلم من أفراد أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير ، إحرص على ماينفعك واستعن بالله ولاتعجز ، فإن أصابك شىء فلا تقل : لو أنى فعلت كذا كان كذا ، ولكن قل : قدر الله وماشاء فعل ، فان لو تفتح عمل الشيطان » .

وقال ابن مسعود : « إنى لأبغض الرجل أراه فارغا ليس فى شىء من عمل الدنيا ولاعمل الآخرة » وقال : يكون فى آخر الزمان أقوام أفضل أعمالهم التلاوم بينهم » . وقال ابن عباس : « تزوج التوانى بالكسل فولد بينها الفقر » وقال مالك بن دينار : « مامن أعمال البر شى إلا ودونه عطية ، فإن صبر صاحبها أفضت إلى روح ، وإن جزع رجع » وقال سفيان الثورى : « مضى القوم على الخيل العتاق ، وبقينا على حُمُر دبرة » .

فصل :

وعلاج الكسل تحريك الهمة بخوف فوات القصد ، وبالوقوع فى عقاب اللوم ، أو بالحصول فى بيداء التأسف، فإن أسف المفرط إذا عاين أجر المجتهد أعظم من كل عقاب .

وليفكر العاقل فى سوء مغبة الكسل ، فرب راحة أوجبت حسرات وندما ، ومن رآى جاره قد سافر ثم عاد بالأرباح زادت حسرة أسفه على لذة كسله أضعافا ، وكذلك إذا برع أحد الرفيقين فى العلم وتكاسل الآخر.

والمقصود أن ألم الفوات يربو على لذة الكسل ، وقد أجمع الحكماء على أن الحكمة لاتدرك بالراحة ، فمن تلمح ثمرة الكسل اجتنبه ، ومن مدفطنته إلى ثمرات الجد نسى مشاق الطريق ، ثم اللبيب يعلم أنه لم يخلق عبثا، وإنما هو فى الدنيا كالأجير أوكالتاجر .

ثم إن زمان العمل بالإضافة إلى مدة البقاء فى القبر كلحظة ، ثم إضافة ذلك إلى البقاء السرمدى إما فى الجنة وإما فى النار ليس بشىء .

ومن أنفع العلاج النظر فى سير المجتهدين ، فالعجب من مؤثر البطالة فى موسم الأرباح ، وتارك الإستلاب وقت النثار .

وعن فرقد قال : « إنكم لبستم ثياب الفراغ قبل العمل ، ألم تروا إلى الفاعل إذا عمل كيف يلبس أدنى ثيابه ، فاذا فرغ اغتسل ولبس ثوبين نقيين، وأنتم لبستم ثياب الفراغ قبل العمل .

# الباب الثالث والعشرون

## فى تعريف الرجل عيوب نفسه

أعلم أن النفس محبوبة ، وعيوب المحبوب د تخفى على المحب ، وفى الناس من يقوى نظره وجهاده للنفس فينزلها منزلة العدو فى المخالفة ، فتظهر له عيوبها . قال إياس بن معاوية : « من لم يعرف عيب نفسه فهو أحمق » . فقيل له : فما عيبك ؟ قال : « كثرة الكلام » ، وهذا أمر نادر . والعمل على الغالب فإن الغالب أن يخفى على الإنسان عيوب نفسه .

ولسنا نريد ألا يعرف عيبا ظاهرا ، فان العاقل إذا أتى عيبا عرفه وإنما غرضنا العيوب الباطنة ، فإنها كالأمراض الباطنة التى لا يعلم بها الطبيب فيصف لها دواء ولا عليها أمارة ، ومحبة الإنسان لنفسه تمنعه أن يرى العيب الخفى عيبا كما قال الشاعر .

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدى المساويا

وقد روى أن رجلا صحب رجلا فلما أراد أن يفارقه قال له : أخبرنى عن عيوبى فقال : سل غيرى فإنى كنت أراك بعين الرضا .

فإن قيل : فإذا كانت العيوب باطنة والإنسان لا يراها عيوبا فكيف الطريق إلى تعرفها ؟ فالجواب : أن لذلك سبع طرائق .

الطريق الأول : أن يتخير صديقا من أعقل مخالطيه ، ويسأله عن إبانة مايرى من قبيحه ، ويعرفه أن ذلك منة منه عليه ، فاذا أخبره ابتهج بما سمع منه ، ولم يظهر له الحزن على ذلك ، لئلا يقصر فى شرح الأمور ويقول له : متى كتمتنى شيئا عددتك غاشا .

والطريق الثانى : أن يبحث عما يقوله فيه جيرانه وإخوانه ومعاملوه ، وبماذا يمدحونه أويذمونه .

والطريق الثالث : أن يتطلع إلى مايقوله فيه الأعداء ، فان العدو بحاث عن العيوب ، ومن هذا الوجه ينتفع الإنسان بعدوه مالا ينتفع بصديقه . لأن العدو يذكر النقص ، والصديق يستر الخلل ، فاذا عرف الإنسان من طريق عدوه نقصا اجتنبه .

الطريق الرابع : أن يصور أفعاله فى غيره . ثم يستعمل منها مايستحسن، ويترك ما يستقبح .

والطريق الخامس : أن يعمل فكره فى عواقب خلاله وثمراتها ، فيرى عيب العيب ، وحسن الحسن فان الفكر الصادق نافذ .

والطريق السادس : أن يعرض أعماله على محك الشرع ، ويريها نافذ العقل ، ويضعها فى موازين العدل ، فانه يرى الأرجح والأدون .

والسابع : أن ينظر فى سير العاملين ، ثم يقيس أفعاله بأفعالهم ، فيرى حينئذ أن آثار النقص عيب فيجتنبه فضلا عن فعل القبيح .

## الباب الرابع والعشرون

### فى تنبيه الهمة الدنيـــة

إذا كانت الهمة الدنية طبعا لم ينجع فيها العلاج، فان كانت مكتسبة بصحبة الأدنياء ، أو لغلبة الطبع والهوى فعلاجها قريب ، وذلك من وجوه . منها مقاطعة أهل الدناءة أنفة منهم ، ومواصلة أرباب الهمم العالية ، ثم التفكر فى العواقب ومآل الدناءة ومصير أولى الجد والاجتهاد ، كما قال عبد الصمد :

مات رجل من السعاة وقد بقي له شرط والناس يقولون له : مت اليوم تحى أبدا ، فانتبهت بها .

ومن تفكر فى المرتفعين فى الهمم علم أنهم كهو من حيث الأهلية والآدمية ، غير أن حب البطالة والراحة جنيا عليه فأوثقاه فساروا وهو قاعد، ولو حرك قدم العزم لوصل . قال الشاعر :

إذا أعجبتك خصال امرىء فكنه تكن مثل ماأعجبك
فليس على الجود والمكرمات إذا جئتها حاميا يحجبك

ومن نظر فى أخبار السلف رآى عموم الفقهاء والعلماء وأكثر المشار إليهم بذلك من الموالى والضعفاء وأهل الحرف الدنية ، إلا أن الهمم أثرت فأثارت عن موطن العزة ، ولو تفكر أرباب الهمم الدنية فى عواقبها ومايجىء عليهم لرأوا البطالة عدوا، وإنما صحبوا دناءة الهمة تعجلا للراحة ، ومايلقونه من الحسرات على فوت الفضائل ، والسقوط من أعين الناس والإهانة لهم أعظم من كل كرب وشدة .

وماينالله أرباب التعب من الراحة فى تعظيم الخلق لهم وارتفاع قدرهم فى الدنيا قبل الآخرة ينسى مرارة كل نصب فكأنه ما تعب من استراح ، ولا استراح من تعب .

وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار فيصبغ فى النار صبغة ثم يقال له . يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول : لا والله يارب مامر بى بؤس قط ولا رأيت شدة » . وبيان هذا أن التعب ينقضى وتبقى الراحة، والراحة تذهب وتبقى الحسرة ، والمقام موسم ، والفوات معترض ، والاستلاب عاجل ، وفى بعض هذا إزعاج للمتوانى .

# الباب الخامس والعشرون

## فى رياضـــة النفس

الأصل فى الأمزجة الصحة ، والعلل طارئة ، وكل مولود يولد على الفطرة ، ويوضح ماقلناه : أن الرياضة لاتصلح إلافى نجيب ، والكودن لاتنفعه الرياضة ، والسبع وإن ربى صغيرا لايترك الافتراس إذا كبر ، وقد عرفت تلك الحكاية « ومن أنباك أن أباك ذيب » .

وأعلم أن فى الإنسان قوى ثلاثة ، قوة ناطقة ، وقوة شهوانية ، وقوة غضبية ، فينبغى لمن شرفه الله تعالى يجب العلم أن يعتنى بتكميل النفس الناطقة التى فضله الله تعالى بها على سائر الحيوانات ، وشارك بها الملائكة ، فيجعلها هى المسلطة على القوتين الأخريين، أعنى الشهوانية والغضبية ، لتكون منزلتها فى البدن بمنزلة الراكب للفرس ، فان الفارس يبتغى أن يكون هو المسلط على الفرس لاستعلائه ، فيمضى بها أين يشاء ، ويعقها إذا شاء .

فكذلك ينبغى أن تكون القوة الناطقة هى المستعلية على باقى القوى تستعملها كما تحب ، وتكفها حين تحب ، ومن كان كذلك استحق أن يسمى إنسانا حقيقة ، قال أفلاطون : الإنسان بالحقيقة من كانت نفسه الناطقة أقوى الأنفس ، لأن الشهوانية إذا أفرطت خرج الإنسان إلى طبع البهيمة ، ومن سبب هواه فى مرعاه ، وجعل حبله على غاربه فقد خرج عن مركزه ، فصار أخس من البهائم ، لأن تلك تمضى بطباعها ، وهذا قد خالف طبعه .

ومتى أفرطت القوة الغضبية خرج الإنسان إلى أخلاق السباع والضوارى ، فينبغى أن يروض نفسه بمخالفة الشهوانية ، ويكسر الغضبية ، ويتبع القوة الناطقة ، حتى يتشبه بالملائكة ، ويتحرز من عبودية الشهوة والغضب .

فصل :

وأعلم أن الرياضة للنفس تكون بالتلطف والتنقل من حال إلى حال ولا ينبغى أن يؤخذ أولا بالعنف ولكن بالتلطف ثم يمزج الرغبة بالرهبة . ويعين على الرياضة صحبة الأخيار ، والبعد عن الأشرار ، ودراسة القرآن والأخبار ، وإجالة الفكر فى الجنة والنار ، ومطالعة سير الحكماء والزهاد .

وقد كان بعض السلف يشتهى الحلواء فيعدها لنفسه فإذا صلى بالليل أطعمها ، وكان الثورى يأكل مايشتهى ، ثم يقوم إلى الصباح ، ويقول : أطعم الزنجى ولده . ومازال المحققون يتلطفون بنفوسهم إلى أن ملكوها ، فقهروها .

قال بعض جيران مالك بن دينار : سمعته ليلة يقول لنفسه : هكذا فكونى ، فلما أصبحت قلت له : مامعك فى الدار أحد ، فلمن قلت ؟ قال : إن نفسى طلبت منى أدما وألحت فمنعتها الطعام ثلاثة أيام . فلما كانت الليلة وقد انقضت الأيام وجدت كسرة يابسة فبادرت إليها فقلت لها : قفى آتيك بخبر لين . فقالت : قنعت بهذه الكسرة . فقلت : هكذا فكونى .

وأعلم أنه إذا علمت منك النفس الجد جدت،وإذا عرفت منك التكاسل طمعت فيك كما قال الشاعر :

ويعرف أخلاق الجواد جواده فيجهده كرا ويرهقه ذعرا

ومن الرياضة لها محاسبتها على كل فعل وقول ، ومحاسبتها فى كل تقصير وذنب ، فإذا تمت رياضتها حمدت ماذمت من تعبها . قال ثابت البنانى : كابدت الليل عشرين سنة ، وتنعمت به عشرين سنة ، وقال أبو يزيد مازلت أسوق نفسى إلى الله تعالى وهى تبكى حتى سقتها وهى تضحك . وفى هذا المعنى قول الشاعر :

مازلت أضحك أبكى كلما نظرت إلى أن اختضبت أجفانها بدمى

وبعد هذا فلا ينبغى أن ينسى حقها ، فإن من حقها إعطاؤها حظوظها التى لاتقدح فى مقصود الرياضة ، فإذا منعت مقاصدها فى الجملة عمى القلب وتشتت الهم ، وتكلف التعبد .

واعلم أن قدر النفس عند الله تعالى أعظم من قدر العبادات ، ولذلك أباح الفطر للمسافر ، وإنما يعقل هذا العلماء .

## الباب السادس والعشرون

### فى ذكر رياضة الأولاد

أقوم التقويم ما كان فى الصغر ، فأما إذا ترك الولد وطبعه فنشأ عليه ومرن ، كان رده صعبا ، قال الشاعر :

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ولا يلين إذا قومته الخشب
قد ينفع الأدب الأحداث فى مهل وليس ينفع فى ذى الشيبة الأدب

ثم المواظبة على الرياضة أصل عظيم خصوصا فى حق الصبيان ، فان ذلك يفيدهم أن يصير الخير عادة . قال الشاعر :

لاتسه عن أدب الصغير وإن شكا ألم التعب

واعلم أن الطبيب ينظر إلى سن المعالج ومكانه وزمانه ، ثم يصف . فكذلك ينبغى أن تكون رياضة كل شخص على قدر حاله ، وأمارة فلاح الصبى وفساده تبين من طفولته ، فالنجيب منهم ينتبه بالتعلم ، والذى ليس بنجيب لاينفعه التعلم ، كما لايصير الهجين بالرياضة نجيبا .

وينبغى أن يتطلف بالصبى ، قال رجل لسفيان الثورى : نضرب أولادنا على الصلاة ؟ قال : بل بشرهم ، وكان زبيد اليافى يقول للصبيان : من صلى منكم فله خمس جوزات ، وقال إبراهيم بن أدهم : أى بنى ، إطلب الحديث فكلما سمعت حديثا فلك درهم ، فطلب الحديث على هذا .

فصل :

وليعلم الوالد أن الولد أمانة فى عنقه ، فليجنبه قرناء السوء من الصغر ولا يعوده إياهم ، وليلق إن الخير . فان قلبه فارغ يقبل ما يلقى إليه ، وليحبب إليه الحياء والسخاء ، وليلبسه الثياب البيض ، فان طلب الملون قال له : تلك ملابس النساء والمخانيث ، وليبادر بأخبار الصالحين ، وليجنبه أشعار الغزل ، لأنها بذور الفساد ، ولا يمنع من أشعار السخاء والشجاعة ليمجد وينجد ، فان أساء تغافل عن إساءته ، ولا يهتك مؤدبه ما بينه وبينه من الستر ، ولا يوبخ إلا سرا ، ويمنع من كثرة الأكل والنوم ، ويعود الخشونة فى المطعم والمفرش ، فانه أصح لبدنه ، ويعالج بالرياضات الجسمانية كالمشى . ويؤدب بالنهى عن استدبار الناس ، والامتخاط بينهم والتناؤب .

فاذا علقت به عادة خبيثة بولغ فى ردعه عنها قبل أن تتمكن . ولا بأس بضربه إذا لم ينفع اللطف ، قال لقمان لابنه : يابنى ضرب الوالد للولد مثل السماد للزرع ، وإذا رآه عرما فى صغره فليتطف به فقد قال ابن عباس : عرامة الصبى زيادة فى عقله العرامة : الشدة .

فصل :

وكان الحكماء يقولون : ابنك ريحانتك سبع سنين ، وخادمك سبع سنين ، فان صار ابن أربع عشرة سنة فان أحسنت إليه فهو شريكك ، وإن أسأت إليه فهو عدوك .

ولا ينبغى أن يضرب بعد بلوغه ، ولا أن يساء إليه ، لأنه حينئذ يتمنى فقد الوالد ليستبدبر أى نفسه ، ومن بلغ ستة عشر سنة ولم يصلح فبعيد صلاحه إلا أن الرفق متعين بالكل .

# الباب السابع والعشرون

## فى رياضة الزوجة ومداراتها

من المتعين المبالغة فى النظر بهذا الباب ، فأصلح الأمور أن يتزوج الرجل البكر التى لم تعرف سواه، فقد قالت الحكماء : البكر لك ، والثيب عليك، إلا أنه من أعظم الغلط أن يتزوج الشيخ الكبير طفلة فانها تصير كالعدو . ولكنه يحبسها عن أغراضها ، ولا تقدر أن تنى بمرادها ، وهى تنفر عن الشيخ طبعا.

فان ابتلى الإنسان بذلك فليسم بغضه عندها بحسن خلقه واحتماله، وكثرة الإنفاق عليها ، وقد أمعنا الشرح لهذه الجملة فى كتاب الشيب .

وينبغى أن يتزين لها كما يحب أن تتزين له ، ويستر جسده عنها ، فلا ترى منه إلا المستحسن ، وكذلك ينبغى لها أن تفعل .

فصل :

ولا ينبغى للرجل أن يمزح مع المرأة فتطمع فيه طمعا يخرجها عن طاعته، ولا أن يسلم ماله إليها فيصير هو كالرهن فى يدها ، فربما استغنت واستوثقت لنفسها ثم تركته ، وقد قال الله تعالى « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما » بل ينبغى أن يمزح بنوع من الهيبة .

فصل :

وأكثر العلاج فى إصلاح المرأة منعها من محادثة جنسها ، ومن خروجها من بيتها واطلاعها من ذروته ، وأن تكون عنده عجوز تؤدبها وتلقنها تعظيم الزوج وتعرفها حقوقه ، وتعظم قليل الإنفاق عندها ، وتكون كالحافظ ، فان عقل الصبى مأفون .

فصـل :

وإن وجد الشيخ امرأة قد خرجت عن زمان الصبا، ولم تدخل فى الكهولة كانت أصلح وأطيب لعيشه ، وأقل امتنانا عليه ، وأكثر توقيرا له .

فصـل :

فأما الشاب فانه يـذل ولا يَذل فاذا أراد أن يتمتع بالنساء فالرأى له ، إن كان له مكنة اشترى الجوارى الصغار ، فانهن لم يعرفن الغيرة ، وهى قليلة عندهن لموضع الملكة ، وقدرته على الاستبدال والبيع، ولتكن معهن حافظة ولتكن مع الحافظة حافظة .

فصـل :

ومن رزق امرأة على مراداته فليهب مافات لما حصل ، فان الأصول إذا كانت محفوظة ، لم تذكر الفروع ، وكثرة النساء تحتـاج إلى مؤنات عظام أقلهن حفظهن .

## الباب الثامن والعشرون

### فى رياضة الأهل والمماليك ومداراتهم

أعلم أن الأهل إذا رأوك قد فقتهم بمال أو جاه حسدوك ، ومقاطعتهم محرمة ، فالمداراة لازمة ، وذلك بالبر لهم مع كتمان بواطن الأحوال عنهم، ومن أعظم الغلط حرمان بعضهم وإعطاء بعضهم ، فمن اختار ذلك فيجتهد فى كتمان الأمر لئلا يشترى بالمنع البغض .

وأما المماليك فانهم مالكون على الحقيقة لمالكيهم، لأن المطاعم والمشارب إليهم ، فينبغى أن يتطلف بهم لئلا يحتالوا على القتل . قال بزر جمهر : نحن ملوك على رعيتنا ، وخدمنا ملوك على أرواحنا ، ولا حيلة لنا فى الاحتراز منهم ، فنحن نداريهم .

وليجعل الملك مع اللطف بهم هيبة ، إلا أن البر لهم يكون أغلب وأكثر فى حق من يسلم إليهم الروح ، وهو صاحب المطعم والمشرب .

وأعلم أن المماليك وإن كانوا أهل ذكاء وفطنة يستتر منك عنهم شىء، فربما أحتالوا عليك ، وإن كانوا أهل غباوة لم تبلغ غرضا فى استخدامهم ، لأنك تريد الشىء فلا يفهمون مرادك .

والصواب استخدام أهل الغفلة منهم فى الدواخل ، وأهل الذكاء منهم خارج البيت ، فحينئذ تتم الأغراض .

فصل :

ومن أعظم الغلط دخول المملوك المراهق إلى البيت خصوصا إن كان حسن الصورة وفى البيت نسوة ، فان الشر لا يؤمن ، فان سلمن من ميل إليه لم يسلم هو من ميل إليهن ، وكذلك من باب المخاطر ترك الولد البالغ بين الجوارى ومعلوم أن قوة الشهوة وجهل الصبا ينسيان مقدار الحرمة والتحريم ، فهذه أصول ينبغى أن يداوى بدوائها ولا تهمل ، فانها تجر أمورا صعبة .

## الباب التاسع والعشرون

### فى معاشرة الناس ومداراتهم

لما كانت طباع الناس تختلف كانت مداراتهم لذلك صعبة. فأصلح ما استعمل العاقل العزلة عنهم ما أمكن ، فانها راحة عظيمة ، فاذا اضطر إلى مخالطتهم خالطهم بالتلطف وإيفائهم حقوقهم وإهمال حقه عليهم ، والحلم عن جاهلهم والعفو عن ظالمهم ، وإيثار متكبرهم بالمجلس .

ومن أعظم ما يملكهم به السماح والعطاء ، فانه يسترق به من لم يكن ينقاد. وقد جاء فى الحديث : مداراة الناس صدقة .

فصل :

وإذا ابتلى العالم بمخالطة العوام فينبغى أن يلبس جُـنة الحذر ، فإن أغراضهم مختلفة يرضى أحدهم مايسخط الآخر ، ويغضب من الصواب لأنه يراه خطأ ، ولايقبل من جهله أقوال العلماء .

فليبعد العالم عنهم مااستطاع ، فإن مخالطتهم تشينه وتنقص من مقداره فى أعينهم ، فيهون عليه عندهم ، ولو رآه عاص يضحك ويأكل ، أوسمع أنه تزوج لم يقله عنده قدر . فالحذر الحذر منهم ، فإنهم قتلة الأنبياء فإذا اضطر إلى مجالستهم فليقلل الكلام معهم وليتكلم بمالا تسلق لهم به عليه ، ولا فيه احتمال لما لايصلح لخطابهم ، وبعد هذا فالسلامة منهم طريفة .

# الباب الثلاثون

## فى ذكر السيرة الكاملة

علامة الكامل تربية القدرة له من الطفولة،وإعطائه الرأى التام والعقل الوافر من الصغر ، كما قال تعالى : « والقد آتينا إبراهيم رشده من قبل » .

وتخلق له همة عالية ، وشرف نفس ، فتحمله على طلب المعالى ، وتمنعه ركوب الدنايا ، فتراه يحب أن يكون رئيس الصبيان . فاذا ترعرع كان الأدب شعاره من غير تعلم والحياء لباسه من غير ترهيب .

وأقل الرياضية فيه يؤثر ، كما ينفع المسن الفولاذ،ولاينفع الحديد ، فاذا عقل واستدل على صانعه ، وعلم لماذا خلق ، ونظر بماذا خوطب ، وإلى أين يصير ، وما المراد منه،شمر عن ساق وساق،فيطلعه العلم على حقائق الأمور فيرى أن أفضل الأشياء مايقربه من خالقه ، ثم يرى أن أقرب ما يقرب به العلم والعمل ، فيجتهد فى إكمالها على غاية ما يطيق منهما بدنه وينهض النية والعزيمة بحمل الباقى .

وأنت ترى خلقا يقتصرون على بعض فنون العلم ، فهذا مع النحو جميع عمره ، وهذا مع الحديث طول دهره ، وهو يرى أن كل العلوم مقصود غير أنه لما علم أن العمر لايسع الكل أخذ مايحتاج إليه من الكل زادا لمسيره ، ونهض للعمل بمقتضاه ، فتراه بتهيب العمر خوف أن يذهب ومانال المزاد ، ولايضيع لحظة فى غير مهم ، وينافس نفسه فى زمان المطعم والنوم ، لعلمه بقصر المدة كما قال الشاعر :

فاقضوا مآربكم عجالا إنما أعماركم سفر من الأسفار
وتراكضوا خيل السباق وبادروا أن تسترد فإنهن عوارى

فهو أبدا يجتهد فى عمارة وقته ، ويقهر هواه لإصلاح أمره ، ويقطع من العلم مهمه ، فقلبه مشغول عن اللهو بتصحيح قصده ، وجوارحه مقبلة بالجد على طاعة ربه ، وقد اقتنع بمارزقه الله عن منن خلقه وعف عن أموالهم حفظا لعرضه ، فسادهم لغناه عنهم ، وأزال فسادهم بوعظه .

فإن عاملهم فبالإنصاف لم يأخذ عليهم بفضله ، وإن استشاروه اجتهد فى نصحهم على أن مشغول عن الكل بنفسه ، فتأهب للنقلة ، همه جمع رحله . يؤدى إلى كل لحظة حقها من الحراسة .

رزقنا الله وفاقهم ، ووهب لنا لحاقهم ، وألبسنا أخلاقهم ، بسعة فضله ، إنه سميع قريب من عبده ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ؟

جميع حقوق الطبع والنقل
محفوظة للنـــاشر

١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م

# الفهرس


| الموضوع | صحيفة |
|---|---|
| مقدمة المحقق | ٣ |
| مع ابن الجوزى فى لطائفه ـ أثر الكتاب فى أعيان العلماء ـ | |
| الفصل الأول : قوله تعالى : هو الأول والآخر . . . | ١٠ |
| « الثانى : فى ذكر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم | ١١ |
| « الثالث : فى آدم عليه السلام | ١٣ |
| « الرابع : فى وصف الربيع | ١٦ |
| « الخامس : إشارات عن سلمان الفارسى | ١٨ |
| « السادس : الجوع والسهر | ٢١ |
| « السابع : فى التوبة | ٢٤ |
| « الثامن : فى النفس | ٢٥ |
| « التاسع : فى الدنيا | ٢٧ |
| « العاشر : فى الغفلة | ٣٠ |
| « الحادى عشر : خوف السابقة | ٣١ |
| « الثانى عشر : التضحية | ٣٢ |
| « الثالث عشر : حب الدنيا | ٣٤ |
| « الرابع عشر : فى العقل | ٣٦ |
| « الخامس عشر : فى قدر الإنسان | ٣٩ |
| « السادس عشر : فى العبرة | ٤١ |
| « السابع عشر : فى الإنسان والملائكة | ٤٢ |
| « الثامن عشر : فى العزيمة | ٤٤ |
| « التاسع عشر : فى وجوب اليقظة | ٤٥ |

| الموضوع | صحيفة |
|---|---|
| الفصل العشرون : الحياة والموت | ٤٧ |
| « الحادى والعشرون : الموعظة | ٤٨ |
| « الثانى « : فى ذم الدنيا | ٤٩ |
| « الثالث « : شماته العدو | ٥١ |
| « الرابع « : فى الزهد | ٥٢ |
| « الخامس « : فى العلم والعمل | ٥٤ |
| « السادس « : فى الصبر | ٥٥ |
| « السابع « : النظر للعاقبة | ٥٧ |
| « الثامن « : فى النظر فيما لا يعنى | ٥٩ |
| « التاسع « : فى اللطف الإلهى | ٦٠ |
| « الثلاثون : فى الفرار إلى الله | ٦١ |
| « الحادى والثلاثون : فى القدر | ٦٢ |
| « الثانى « : متاع الغرور | ٦٣ |
| « الثالث « : نصائح شتى | ٦٤ |
| « الرابع « : الصبر | ٦٦ |
| « الخامس « : القلب والنفس | ٦٧ |
| « السادس « : فى صدق الباطن | ٦٩ |
| « السابع « : الذكر | ٧٠ |
| « الثامن « : الظاهر والباطن | ٧١ |
| « التاسع « : حب الدنيا | ٧٣ |
| « الأربعون : العمل للدنيا | ٧٦ |
| « الحادى والأربعون : نصائح | ٧٨ |
| « الثانى « : « | ٧٨ |
| « الثالث « : أوقات العارفين | ٨٠ |

| الموضوع | صحيفة |
|---|---|
| الفصل الرابع والأربعون : استفتاح العارفين للرزق | ٨٢ |
| « الخامس « : سفر الإنسان | ٨٣ |
| « السادس « : ما بعد الوعظ | ٨٥ |
| « السابع « : قرب الرحيل | |


## كتاب الطب الروحانى


| | |
|---|---|
| مقدمة قبل الكتاب | ٩٢ |
| فضل العقل | ٩٣ |
| ذم الهوى | ٩٤ |
| ما يراه العقل وما يراه الهوى | ٩٥ |
| دفع العشق | ٩٦ |
| دفع الشره | ٩٨ |
| رفض رياسة الدنيا | ١٠١ |
| دفع البخل | ١٠٢ |
| النهى عن التبذير | ١٠٣ |
| مقدار الاكتساب والإنفاق | ١٠٤ |
| ذم الكذب | ١٠٤ |
| دفع الحسد | ١٠٥ |
| دفع الحقد | ١٠٨ |
| دفع الغضب | ١٠٩ |
| دفع الكبر | ١١٢ |
| دفع العجب | ١١٤ |
| دفع الرياء | ١١٤ |
| دفع فضول الفكر | ١١٧ |

| الموضوع | صحيفة |
| --- | --- |
| دفع فضول الحزن | ١١٨ |
| دفع فضول الغم | ١١٩ |
| دفع فضول الخوف | ١٢١ |
| دفع فضول الفرح | ١٢٥ |
| دفع الكسل | ١٢٦ |
| تعريف الرجل عيوب نفسه | ١٢٨ |
| تنبيه الهمة الدنيئة | ١٢٩ |
| رياضة النفس | ١٣١ |
| رياضة الأولاد | ١٣٣ |
| رياضة الزوجة ومداراتها | ١٣٥ |
| رياضة الأهل والمماليك ومداراتهم | ١٣٦ |
| معاشرة الناس ومداراتهم | ١٣٧ |
| السيرة الكاملة | ١٣٨ |